
حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com
العدد الثالث عشر / السنة الرابعة / (أكتوبر - ديسمبر) ٢٠٠٨
اهجر النوم وهاجر،
اشحذ زناد إرادتك وهاجر،
احمل شعلة النور وهاجر،
وفي كل مكان
اغرس فسيلة روحك،
ففيها تختفي حدائق الكون،
وأسرار الوجود،
والأمل المنشود،
والعالم الموعود..
***
• حركة نماذجها من ذاتها - فتح الله كولن
• ضوء الشمس ونور القمر - أ.د. زغلول النجار
• فقه المجتمع، نحو استئناف التأسيس - أ.د. أحمد عبادي
• محبة الله وثمارها - أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
• المنهاج النبوي في المداعبة والمزاح - أ.د. محمد عمارة
• مفهوم الأمن في القرآن الكريم - أ.د. الشاهد البوشيخي

بسم الله الرحمن الرحيم

القوى الذاتية

الإنسان قوة واعية، وأعظم الوعي أن يعي الإنسان نفسه، ويعي ما انطوى عليه من قوى روحية خلاقة قادرة على أن تتشكل خارج النفس فكرًا أو سلوكًا وطاقات عمل.. ومن هنا ظلت الأقلام الشريفة الجادة تؤكد على الجانب الذاتي من الأمة، هذا الجانب الزاخر بالطاقات والإمكانات.. فاستنهاض هذه القوى الذاتية للأمة مضافا إليها قوى عصرية جديدة وفتية، تزيد في قدرتها على امتلاك ناصية النموذج الأرقى من دواخلها من دون الحاجة إلى تلمسه في مواطن أخرى... فمقال فضيلة الأستاذ "فتح الله كولن" يدور حول هذه المحاور التي ذكرناها آنفًا.

أما جوهر الإنسان، ومجال التدافع الحضاري فيمكن استشفافه من خلال منظومة القيم الإسلامية وحاجة الواقع المعاصر لها كما يقول الدكتور "الصمدي" في مقاله الموسوم بالعنوان نفسه.. وقد كتب العالم الكبير الأستاذ "زغلول النجار" فقال: "هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نورا من سطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق..."، وهذه الفقرات تكاد تكون تلخيصا لمقاله "ضوء الشمس ونور القمر". وللروح في هذا العدد من "حراء" أغنية يغنيها وينظمها الشاعر المبدع "عبد العزيز المقالح" من اليمن وهي تنمّ عن شاعرية شفافة الأردان، رقيقة الإهاب.

ونحو استئناف التأسيس للمؤسسات المدنية في المجتمع الإسلامي المعاصر، يكتب الأستاذ الدكتور "أحمد عبادي" مقالا في غاية الأهمية يعزو فيه أسباب زهد المسلمين الأوائل في ضبط المؤسسات وبلورة فقه خاص بها إلى البعد العقيدي في التقوى الذي يكاد يكون بحد ذاته نوعا من أنواع الضبط المؤسساتي للمجتمع، غير أن استئناف العمل التأسيسي اليوم وبلورة فقه خاص به أمر تقتضيه حياة المجتمع في العصر الحديث.

أما شيخنا الجليل الأستاذ الدكتور "محمد سعيد رمضان البوطي" فيطرق في مقاله قضية مهمة في حياة الفكر والوجدان، وهي قضية "محبة الله" والنتائج التي تحققها في حياة الفرد والمجتمع.. والأستاذ الدكتور "محمد عمارة" يلتفت في مقاله الموسوم "المنهاج النبوي في المداعبة والمزاح" إلى جانب من جوانب الشخصية المحمدية الحبيبة قلما التفت إليها كتاب السير، ألا وهي المداعبة والمزاح، ويسرد لنا صوراً من مزاحه الشريف والعفيف عليه الصلاة والسلام. والشاهد "البوشيخي" عملاق "المصطلح" في المغرب العربي، فهو يحدثنا في مقاله عن "مفهوم الأمن في القرآن الكريم" في عمق واستيعاب كما هو في كل ما يكتب من أبحاث أو مقالات. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد الثالث عشر – السنة الرابعة (أكتوبر – ديسمبر) ٢٠٠٨

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هاني رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن

eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Emniyet Mah. Huzur Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م. نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20222631551

الهاتف الجوال: +20165523088

جمهورية مصر العربية

sub@hiramagazine.com

نوع النشر

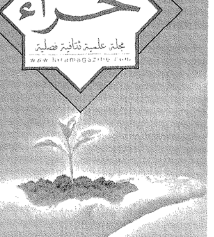
مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

رقم الإيداع

١٣٠٦–١٨٧٩



المحتويات

EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Tel-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Emniyet Mahallesi, Huzur Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone: +90(216) 318 60 11 Fax: +90(216) 422 41 40

USA
The Light, Inc.
26 Worlds Fair Dr. Unit C Somerset,
08873 New Jersey, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
AL Watania Distribution الوطنية للتوزيع
P.O.BOX 8454 Riyadh Zip Code: 11671 Saudia
Tel: +966 1 4871414
GSM: +966 504358213

SYRIA
GSM: +963 944 355675

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Tel: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Tel: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Tel: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
GSM: +971 509605303

حركة نماذجها من ذاتها



فتح الله گولن

في هذا المقال أحب أن أتحدث عن موضوع يقتضي خُلُقُ الوفاء تناوله، وهو في الوقت نفسه موضوع يصعب الحديث عنه لأنه يشبه قصص البطولة القريبة من الأساطير. ولا أدري في الحقيقة هل تستطيع مقالة أن تحيط في إطارها حركة البعث والإحياء التي بدأت فسائلها ونبتاتها الصغيرة تورق في أرجاء المعمورة؟.. لا أظن هذا... فمعلوماتي في هذا الموضوع منحصرة فيما شاهدته في أفلام الفيديو، وشهادتي هنا بمسموعاتي، وقلمي أسير لقريحتي، ولا أدري متى تتجلى حقيقة ما تم ومعاني ما جرى.. أيا ليت شعري ماذا يمكن أن نقول في هذه الحال؟! لذا فكل ما يمكنني في هذا الأمر هو القيام بتصوير زهرة أو وردة واحدة تمثل جميع الأزاهير والورود. فكيف يمكن بصورة ميتة لزهرة واحدة تصوير جمال بستان بأكمله... بستان بزهوره وورود، مع أن لكل زهرة لونها، ولكل وردة جمالها الخاص بها؟.. من الواضح

استحالة هذا الأمر. ومع هذا فإنني أعتقد بضرورة إظهار مثل هذه الجرأة لدعوة أرباب القلوب والعلم كي يسجلوا ملحمة العصر هذه ويشرحوها. فإن استطاعت محاولتنا هذه دفع بعض أرباب الهمة إلى البدء في هذه المهمة، فإن محاولتنا تكون قد وصلت إلى هدفها.

إذن فمهما كان الأسلوب ومهما كان مستوى التعبير فيجب شرح هذه الملحمة، لإيداعها في ضمير التاريخ أولاً، ثم لأداء حق ودَيْن الوفاء للأبطال الذين نذروا أنفسهم لها وأنجزوها وحققوها. فإن لم يتم شرح هذا النسيم الرقيق الذي هب في أرجاء الأرض في وقت قصير و لم تتم الإشادة بهذا الهواء الدافئ، وبهذا الفكر النضر، وبموجات الحب وقبول الآخر التي تموجت بها أرجاء الأرض... فإن هذا يكون جحوداً وقلة وفاء، وضعفاً في الشهامة، وعدم احترام وتوقير لمثل هذه الخصال السامية.

إن هذه الحركة ظاهرة يجب أن تُشرح ويتم الوقوف عندها بشكل جدي، فَقَدْ قررت فئة قليلة ملكَ الحب قلبها أن تنطلق لنيل رضاه تعالى إلى المشرق وإلى المغرب وإلى أرجاء الأرض جميعاً في وقت لم يخطر فيه هذا بخاطر أحد.. انطلقت دون أن تهتم بآلام الغربة وبفراق الأحبة، ملؤها العزم والثقة... طوت في أفئدتها بعشق خدمة الإيمان لواعجَ الفراق، وَحُبَّ الوطن، وآلامَ فراق الأهل والأحبة... قليل من الناس شعروا مثلهم وعاشوا الجهاد في سبيل الله مثلهم وقالوا وهم ينتشرون في المغرب وفي المشرق مثلما قال حواريو الرسل "خضنا دروب الحب فنحن مجانين..." (الشاعر نيكاري)... ذهبوا وهم في ميعة الشباب يحملون آمالاً وأشواقاً دنيوية تشتعل في قلب كل شاب والتي لها جاذبية لا تقاوَم فضلا عن هذه الفترة النضرة من مرحلة الشباب، ذهبوا في عصر طغت فيه المادية والأحاسيس الجسمانية على المشاعر الإنسانية، وهم يكبتون تلك المشاعر والآمال المشتعلة في صدورهم باشتياق إلى وصال آخر أقوى منها وأكثر التهاباً وتوهجاً وهم ينتشرون في مشارق الأرض ومغاربها ويسيحون حاملين في أفئدتهم تلك الجذوة المشتعلة من نشوة الرعيل الأول. لم تكن هذه السياحة من ذلك النوع الذي يهيم به الشاب في مرحلة مراهقته خلف حلم ملكة جمال مزيفة ويعيش طوال عمره بسذاجة في أوهام وخيالات آلام الفراق، مبتعداً عن ذاتيته ولا يستطيع الوصول أبداً إلى مبتغاه. أما سياحة هؤلاء الأفذاذ فسياحة واعية ملؤها المشاعر الصادقة والإرادة الحازمة والإخلاص الصادق العميق... ويمكنكم أن تعبروا عن هذا، بأنهم المستعلون على كل حب سواه تعالى، المجاهدون في سبيل دعوتهم، ديناميكيتهم الإيمان دوماً، وأحوالهم الطبيعية العشق، ومبتغاهم نذر أنفسهم لله تعالى، وأسوتهم النور الخالد ﷺ. أجل!.. لم يتعثر هؤلاء لطبع أنفسهم و لم يستسلموا أمام العراقيل. الحب الوحيد الذي لم يبهت في أفئدتهم كان حب الله ومحاولة كسب رضاه، والوصول إلى الحق تعالى. لذا شدوا رحالهم إلى أبعد زوايا العالم. ساروا في هذا الطريق، فافتخر بهم الطريق، وسعد بهم الربانيون، وشقي بهم الشياطين.. ساروا دون خيل ولا عربة، لا سلاح لهم ولا ذخيرة... الإيمان العميق الذي كان يعمر قلوبهم ويتفجر فيها كالحمم كان منبع قوتهم وقدرتهم... وهدفهم المرسوم في آفاقهم سعادة الإنسانية ورضوان الله تعالى... حظوظهم كحظوظ الحواريين والصحابة... وصلوا في عفتهم وطهرهم إلى عفة الملائكة الأطهار، وسجلوا ذكريات ملاحم لا تنسى ولا تمحى.

وأسالوا في كل مكان وصلوا إليه نورا دفّاقا من الأزل.. أشعلوا المواقد في كل جانب في لهيبها وجمرها ودخانها الأمنَ والطمأنينة.. تهاوى سحر الظلم والظلام.. طار نوم خفافيش الإلحاد.. تعالت شكايات واحتجاجات الظلام كله.. تصاعدت موجات الكذب والافتراء والزور.. وارتفع ضجيج الفكر الفج والتعصب.. توجهت السهام نحو الفكر الحر، ووضعت المصائد المميتة للإيمان. ولكن جميع هذه المحاولات اليائسة كانت سدًى، فقد انتشر النور في كل الأرجاء، ولف النور الآتي من الأزل بأكملها. لقد أصبح العهد عهد الأرواح النيرة وصار الزمان زمانهم.. صحيح أنه بقي بعض آثار الغبار والدخان، وكان الأفق مضبباً، ولكن كان سحر الظلام والفكر الفج قد زال وانقضى.

لقد أصبحت الكلمة الآن لأصحاب الأرواح النيرة. ستكتشف الإنسانية بهم نفسها من جديد، وستأخذ مكانها الصحيح في كيان الوجود. لذا كان هؤلاء هم الجيل المرتقب. هم المنتظرون من قبل الإنسانية في كل مكان.. أما هم كانوا بخلقهم الرفيع وبتواضعهم الجم وبعبوديتهم لله وتعظيمهم له، وبتوقيرهم للناس واحترامهم لهم، ينتظرون من خلال فرجة باب رحمة الرحمن الرحيم واللحظة التي سينهمر فيها النور الإلهي عليهم. إنهم جيل المستقبل وأبناءَهُ أيا كان تقييم الناس إياهم، فالمستقبل المنوّر حامل بأسرارهم. كل فرد من هؤلاء السعداء حواري الإحياء والإنقاذ ضمن طاقته،

حاملين بأيديهم باقات من ورود الصداقة، وعلى شفاههم أناشيد الأخوة. أقوالهم الفاصلة -كالفيصل المهنّد- تغذّى من شلّال القرآن، أحاديثهم ذات أبعاد أخروية. كلماتهم وأحاديثهم كانت تبيد الظلام وتزيله دون أن تجرح أحداً. إنها كانت تطبع صوت خرير ماء الكوثر في الآذان، دون أن تترك أثر حسرةٍ عند أحد.

والحقيقة أن هؤلاء لا يحتاجون لا إلى يد ولا إلى لسان، لأن وجوههم المتلألئة كالمشاعل تُذكر بالله أينما حلوا وأينما وجدوا وأينما أقاموا، وأن السحر المترشح من سيماهم الطاهرة والمعاني الناضحة من أحوالهم كان من القوة بحيث تخرس كل بيان أمامه، وتدفع الألسن إلى مراقبة صامتة. لم يكن ضياؤهم، بل حتى ظلالهم تحرق الفراشات الحوامة حولهم، أو نورهم يبهر عيون من يقترب من منازلهم ويعشيها. وكما في المثل: "لسان الحال أبين من لسان القال". كان هؤلاء هم الممثلين لصحة هذا القول. لقد وجد في هذه الدنيا في كل عهد أناس خيّرون وأبرار، إلا أن أداء هؤلاء وأسلوبهم كان شيئاً مختلفاً تماماً. ولا أستطيع أن أقول أن ليس لهم مثيل أو نظير. ولكن إن قيل لي: "إذن فهات" لم أستطع الرد حالاً، بل ربما قلت: "إن هؤلاء يشبهون الملائكة الأطهار".

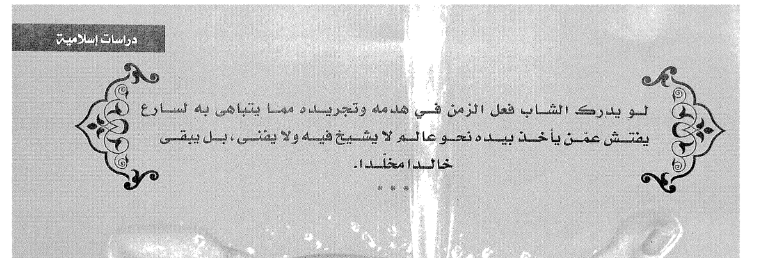
لا يهم بمن نشبه أصحاب هذه الأرواح النيرة، فقد قامت الأنوار التي نشروها بتحويل الصحارى القاحلة إلى جَنّاتِ عدن، وتحول كثير من أصحاب الأرواح المظلمة كالفحم إلى أرواح شفافة ومضيئة كالألماس، والجبلات والأمزجة والطبائع الخشنة والغليظة والهابطة ارتفعت وسمت. لذا فقد كان من الطبيعي أن يتحدث الجميع عنهم الآن، وينتظروا ويترقبوا تحقق الأخوة والمسامحة التي وعدوا بها وسعوا من أجلها. ولا يوجد من يعاديهم ويثيروا الأقاويل والشبهات حولهم سوى الذين لا يميزون بين الظلام والنور، الذين قضوا كل حياتهم في سجن الجسد ومطالبه. الخفافيش منزعجة منهم. الذئاب والوحوش تكشر لهم عن أنيابها. الذين فقدوا رشدهم وصوابهم في ضيق وانزعاج منهم. وأنا أرى -من جهة- هذا أمراً طبيعياً، وأقول: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(الإسراء:٨٤).

ومهما كان من أمر قيام بعضهم بإطفاء الشموع هنا أو هناك، فهم ينيرون القلوب الظامئة أينما حلوا أو ارتحلوا، وينبهون الفطر السليمة والطاهرة إلى ما وراء أستار الأشياء والحوادث، ويسقون السجايا السليمة القيم الإنسانية.

إنني على يقين بأنه بعد أن تم تجاوز العراقيل الموجودة بين القارات بفضل القرآن وتحقق حوار مستند إلى الحب وإلى التوقير تأسست وستتأسس أرضية لتفاهم جديد بفضل هؤلاء الربانيين. لقد عرفت الإنسانية في الماضي أمتنا بأنها أمة مستبشرة قد ضحك لها حظها، فما المانع أن تكون اليوم أيضاً كما كان الحال من قبل؟ بينما نرى أن شلالاً من الحب بدأ يهدر فعلاً بين الناس في كل مكان وصل إليه هؤلاء المهاجرون في سبيل غايتهم. ففي كل مكان، وفي كل موضع يهب نسيم من الطمأنينة والسكينة يشعر به الجميع. والأكثر من هذا فقد تكونت في كل ناحية وجانب ما نطلق عليه وصف جزر السلام والمحبة على أسس مستقرة ومتينة.

من يدري فقد يتحقق في المستقبل القريب بفضل هؤلاء المخلصين الناذرين أنفسهم لفكر البعث والإحياء تأسيس الصلح بين العقل والقلب مرة أخرى. فيكون كل من الوجدان والمنطق أحدهما بُعداً مختلفاً للآخر، وتوضع نهاية للنزاع بين ما هو مادي وما هو ميتافيزيقي، حيث ينسحب كل منهما لساحته ويجري كل شيء في طبيعته وماهيته، ويجد إمكانية التعبير عن نفسه وعن صور جماله بلسانه. ويتم اكتشاف التداخل الموجود بين الأوامر التشريعية والأسس التكوينية من جديد، ويشعر الناس بالندم على ما جرى بينهم من خصام وعداء لا موجب له، وسيسود جو من السكينة والهدوء -الذي لم يتحقق تماماً حتى الآن- في الشارع وفي السوق وفي المدرسة وفي البيت، وتهب نسائمه على جميع البشرية. لن يُنْتَهَكَ عرض، ولن يُداسَ على شرف، بل سيسود الاحترام القلوبَ، فلا يطمع إنسان في مال إنسان آخر، ولا ينظر نظرة خيانة إلى شرف آخر. سيصبح الأقوياء عادلين. وسيجد الضعفاء والعاجزون فرصة في حياة كريمة. لن يُعْتَقَلَ أحد لمجرد الظن. لن يتعرض مسكن أحد ولا محل عمله لهجوم. لن تُـرَاقَ دَمُ أي بريء. لن يبكي أي مظلوم. سيبجل الجميعُ اللهَ تعالى وسيحبُّ الناسَ. حينذاك فقط ستكون هذه الدنيا التي هي معبر للجنة فردوساً لا يُمَلُّ العيشُ فيه. ■

(*) الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



لو يدرك الشاب فعل الزمن في هدمه وتجريده مما يتباهى به لسارع يفتش عمن يأخذ بيده نحو عالم لا يشيخ فيه ولا يفنى، بل يبقى خالدا مخلّدا.

* * *

القيم الإسلامية
وحاجة الواقع المعاصر

أ.د. خالد الصمدي *

حين نتحدث في عالم اليوم عن منظومة القيم، فإننا نمس مباشرة جوهر الإنسان من جهة، ومجال التدافع الحضاري الحقيقي من جهة ثانية. ولئن كان المسلمون يفتخرون عبر تاريخهم الفكري والحضاري بامتلاكهم لمنظومة قيم متكاملة ذات مرجعية صلبة تستند إلى الوحي وجدت تجلياتها في صياغة الإنسان وصناعة محطات مهمة من تاريخ الإنسانية، فإن هذه المنظومة بقيت مغمورة في أصولها النظرية بل وحتى في تفصيلاتها العملية.

مجالات القيم الحضارية في القرآن والسنة

إن سمة "الحضارية" التي نسم بها القيم الإسلامية تستند إلى معايير أربعة قد لا تجتمع في غيرها؛ فهي شاملة لكافة مناحي الحياة، وهي مستندة إلى عقيدة إسلامية تنبني على الثواب والجزاء الأخروي وتتجاوز النفعية المادية الظرفية، وهي مطبقة في الواقع، وبواسطتها بنيت الأمة الإسلامية عبر التاريخ، وفائدتها تطال العالمين دون تمييز على أساس العرق أو اللون أو الدين، اللهم ما كان من ثواب جزيل أعده للمؤمنين برسالة الإسلام وبثواب الآخرة، أما ثواب العاجلة فللمتمسك بالقيم من جميع الملل والنحل وفقا للسنن الإلهية الكونية، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ...﴾(الإسراء:١٨-٢٠).

أ-القيم الاعتقادية والتعبدية

إن ما يميز المنظور الإسلامي للقيم على سائر المنظومات الأخرى، ترسيخه لمفهوم العبودية والاستخلاف أولا. ولم يكن من المستغرب أن يقضي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة في ترسيخ قيم العقيدة في النفوس لأنها الأساس المتين الذي ستُبنى عليه باقي مكونات منظومة القيم الحضارية للأمة الإسلامية، ثم ينزل أول ما ينزل من أحكام العبادات، الصلاة. فالمنطلق إذن في بناء منظومة القيم يبدأ بربط الخالق بالمخلوق، وما سيأتي بعد ذلك من أوامر ونواه ستجد طريقها الطبيعي إلى التنفيذ بناء على ذلك.

وتهدف القيم الاعتقادية والتعبدية إلى تركيز مفهوم وحدانية المعبود، يقابل ذلك تحرير الإنسان من كل مظاهر العبودية لأي مخلوق أو كائن مهما عظم، فهو مخلوق على كل حال يحمل سمات النسبية والضعف ومواد الفناء والاندثار. وتعزز شعائرُ العبادات الخمس هذه الصلةَ بالله، وتعمّق القيمَ الإسلامية في المجتمع من خلال التنفيذ الجماعي لهذه العبادات لانسجام وحدة العبادة مع وحدة المعبود في كامل صور الإبداع والاتساق، ويجد كلٌّ ذلك أثره في سلوك الإنسان اليومي في كل مجالات الحياة. قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠)، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من مولود يولد إلا على الفطرة؛ فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (رواه البخاري). والعقل مناط التكليف، ومكمن المحافظة على صفاء الفطرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾(البقرة:١٦٤).

ب- القيم العلمية والمعرفية

العلم باب الإيمان ومدخله. لذلك ركز الإسلام على قيم التفكر والتدبر والتأمل والاستبصار وأخذ العبرة، فبنى لذلك منهجا للاستدلال على وجود الخالق وعظمته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠) وربط في أول آية نزلت من القرآن الكريم بين المعرفة والربوبية، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥). وبيّن أن العلم بالخالق مدخل لخشيته وطاعته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(فاطر:٢٨)، وجعل الحفاظ على العقل من ضروريات الإنسان الخمس التي لا تقوم الحياة بدونها، وهو طريق الحصول على الزاد المعرفي والمنهجي الذي يمكّن المتعلم من معرفة الذات وبناء الحضارة، كما يمكنه من غربلة الفكر الإنساني بمختلف مشاربه بمقياس القيم الإسلامية، فينتفع ويترك ويتفاعل ويؤثر في إطار سنة التدافع الإلهية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(البقرة:٢٥١). وقد خص رسول الله ﷺ العلم والعلماء بالمكانة المتميزة المحفزة على الطلب الدائم للعلم، قال: "إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب" (رواه الترمذي).

وهكذا تتجلى قيمة القيم العلمية والمعرفية؛ فهي التي تنظم تصورات الإنسان للكون والحياة والمصير، مما يجعل حراكه على هدى ورضوان، وهي مناط التكليف والاستخلاف في الأرض، فإذا انفصل الإنسان عنها أفسد في الأرض وأهلك الحرث والنسل. وهي حصيلة قراءة ومصاحبة ومجالسة، ولذلك كان علماؤنا ﷺ، يحثون على مجالسة العلماء ومرافقتهم ليس للسماع منهم فقط، وإنما للتزود منهم برحيق العلم الذي هو الخُلق الرفيع، قال الشعبي رحمه الله: "جالسوا العلماء فإنكم إن أحسنتم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم، وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علّموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم".

جـ- القيم الأُسَرية والاجتماعية

وهو مجال لتمثل القيم الإسلامية الموجهة للسلوك العام داخل المحيط الصغير (الأسرة) أوّلا من حيث تنظيم العلاقة بين الأزواج وبين كل واحد منهم والأبناء، ثم بين كل هؤلاء وذوي الأرحام، ثم تتوسع الدائرة إلى الجار الجنب والصاحب بالجنب، فإلى المحيط الاجتماعي الواسع. وتحكم كلَّ هذه العلاقات قيم الاحترام والتوقير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتناصح وحب الخير للناس، والتضحية من أجل الصالح العام، والإحسان والتكافل والتآزر والتزاور وغيرها.

ففي القيم الناظمة للأسرة، علّمنا الإسلام أن المودة والسكينة أساس استقرارها، وأن القانون والأحكام الشرعية المنظمة لها لا تعدو أن تكون علاجا لآفات استفحلت وتعذر علاجها بالموعظة الحسنة والتذكير بالميثاق الغليظ، ولذلك وجدنا الآيات التي تتحدث عن نظام الأسرة في الإسلام وخاصة عن نظام العلاقة بين الزوجين تختم في العادة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(النساء:١)، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾(النساء:٣٤)، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾(الأحزاب:٥٥)، للدلالة على الدور الكبير للقيم والرقابة الداخلية في نظام الأسرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾(النساء:١). وجعل الإسلامُ مسؤولية القيام بأعباء الأسرة مسؤولية مشتركة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته" (رواه البخاري). ونظم العلاقة بين أفراد الأسرة

الواحدة على أساس قيم احترام الكبير، وتوقير الصغير، والتودد للأطفال والعدل بينهم، وحماية حقهم في التربية على مكارم الأخلاق وتعليمهم العلم النافع وغير ذلك، كما ألزم الأبناء برد الاعتبار لمجهود الآباء عند الكبر، فأمر بطاعتهما والنفقة عليهما عند الحاجة والعوز، والدعاء لهما بعد الوفاة، وإكرام وصلة أصدقائهما، لأن ذلك من برهما، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾(الإسراء:٢٣-٢٤).

أما القيم الناظمة للعلاقات الاجتماعية فقد نبّه الإسلام إلى أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم، والنصيحة لهم والعفو عنهم، والمسارعة إلى فعل الخير المفيد للأمة حيث كان من مكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ...﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٤). ودعا إلى تجنب كل ما يسيء إلى نظام العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، من غيبة ونميمة وظلم واعتداء على الأنفس والأموال وقطيعة رحم وغرور وكبر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...﴾(الحجرات:١١-١٢). كل تلك الأوامر والنواهي تشكل العقد الناظم للعلاقات الاجتماعية التي أرسى الإسلام دعائمها بنصوص قرآنية وحديثية جامعة، والمتأمل في هذه النصوص يجد أن حسن الخلق مفتاح القيم الاجتماعية، قال ﷺ: "إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا" (رواه مسلم). والإيمان بالله في كل ذلك قوة دافعة لفعل الخير ورادعة عن الشر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ...﴾(البقرة:١٧٧).

وقد فصل رسول الله ﷺ -قولا وفعلا- قيم التماسك الاجتماعي ورغب فيها، ومن ذلك قوله ﷺ: "حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز وإجابة الدعوة وتشميت العاطس" (رواه البخاري)، وقال ﷺ:"أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكّوا العاني" (رواه البخاري). ونهى ﷺ عن كل ما يضر بالعلاقات الاجتماعية فقال: "والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن"، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جارُه بوائقَه" (رواه البخاري). وقال: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخوانا" (رواه مسلم).

إن هذه النصوص الجامعة تدل دلالة قاطعة على الأهمية الكبرى التي أولاها القرآن الكريم والسنة النبوية لتماسك المجتمع ووحدته بناء على منظومة قيم جامعة ترسّخ كل سلوك إيجابي خير، وتنفي كل سلوك مناقض لقيم التساكن والأخوة والوفاق، ولذلك ليس من الغريب أن يشبّه رسول الله ﷺ المجتمع المؤمن بالبنْيان حين قال: "المؤمن للمؤمن كالبنْيان يشدّ بعضه بعضا" ثم شبك بين أصابعه (رواه البخاري). وسر هذا الرص القيمُ الاجتماعية، وعلامة سلامة منظومة القيم الاجتماعية أنين الجسم من كل سلوك مشين مخالف ومناقض؛ قال ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد؛ إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى" (رواه البخاري).

د-القيم الإعلامية والتواصلية

يحتاج العالم اليوم إلى منظومة قيم جامعة ناظمة لنقل الخبر تنهل من مرجعية مرتبطة برقابة الخالق ﷻ، قبل أن تضبطها تشريعات وضعية قلما تحترم. والناظر في الكتابات القليلة المتخصصة في إبراز خصائص النظام الإعلامي من منظور إسلامي يجدها تؤصل نظرها من آي الذكر الحكيم ومن التفصيلات العملية التي جاء بها خير البرية محمد ﷺ؛ فقد بدأ الإسلام أول ما بدأ بالحديث على ضرورة حفظ الإنسان لحواس التواصل التي متعه الله بها، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...﴾(الإسراء:٣٦). ثم ركب على ذلك حفظ أعراض الناس من القول السيئ والباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾(الحجرات:٦). ونهى عن نشر الفواحش بكل إشكالها المسموعة والمرئية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا...﴾(النور:١٩). ثم حث على القول الحسن ونشر الخير، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(الإسراء:٥٣).

ثم وضع الإسلام ضوابط لنقل الخبر ونشره واستعمال وسائل الإعلام في ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، مع تجنب الإشاعة والخبر الكاذب وما سوى ذلك مما ينافي قيم الإسلام في مجال الإعلام والتواصل. وفي ذلك قواعد عظيمة سطرها السنة النبوية، وأولها: تحري الصدق في الخبر، يقول ﷺ " عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، ومازال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب صديقا، وإن الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب كذابا" (رواه مسلم). وثانيها: الدعوة إلى الهدى والخير مع ربط ذلك بالثواب الذي لا ينقطع، قال ﷺ: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه

من الإثم مثل آثام من تبعهم لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" (رواه مسلم). وثالثها: النهي عن انتهاك الحرمات والأعراض، لما يترتب على ذلك من أذى لا يمكن جبره، ومن ذلك قوله ﷺ: "ليس المؤمن بالطعان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء" (رواه الترمذي).

هـ-القيم الاقتصادية والمالية

حينما يعرض الإسلام نظريته الاقتصادية فإن ما يميزه عن غيره من النظريات يكمن في منظومة القيم الموجهة للفعل الاقتصادي للمسلم وأساسها قيمة الاستخلاف، قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...﴾(الحديد:٧) وقال ﷺ: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون" (رواه مسلم). وانطلاقا من هذه القيمة رسم الإسلام نظاما متماسكا للتصرف في المال كسبا وإنفاقا، فأحل الله البيع، ودعا إلى الكد في كسب الرزق الحلال، فرخص في المساقاة والمزارعة وعقود الاستصناع والشركة والتجارة المبنية على التراضي الشرعي، وغير ذلك من ضروب الكسب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ (النساء:٢٩).ونظم الهبات والصدقات الواجبة والتطوعية؛ وحرم الربا والغش والتطفيف في المكاييل وغيرها من ضروب الكسب الحرام، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ...﴾(المطففين:١-٣).

كل ذلك دليل على أن المال مال الله والناس فيه مستخلفون فيه، وسيُسألون عن تصرفهم فيه حفظوا أم ضيعوا، قال ﷺ: "لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه" (رواه الترمذي). وهذه نظرية تخالف النظريات المادية التي تعتبر المال ملكا للإنسان وهو حر في التصرف فيه. وانطلاقا من نظرية الاستخلاف ركز الإسلام قيم حفظ الأمانة، وجعل الخيانة من آيات النفاق، قال رسول الله ﷺ: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان" (متفق عليه). ورسم للمجتمع سياسة مالية تنفي الجشع والطمع والظلم والقهر وتضمن للناس توازنا في الكسب والإنفاق، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا...﴾ (الفرقان:٦٧). وأقر صورا للتداول في المال حتى لا يكون فقط بين الأغنياء، ومن ذلك نظام الإرث والزكاة والوقف والهبة والصدقة، قال ﷺ: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (رواه الترمذي). ونظم الوصايا حتى تحقق مقصدها وغايتها، فعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قلت: يا رسول الله! أنا ذو مال ولا يرثني إلا ابنة لي واحدة أفأتصدق بثلثَي مالي؟ قال: "لا"، قلت" أفأتصدق بشطره؟ قال: "لا"، قلت: أفأتصدق بثلثه؟ قال: "الثلث، والثلث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس" (متفق عليه). ونهى عن الاحتكار والتبذير والإسراف وأكل مال اليتيم، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾(الأنعام:١٥٢). وقال ﷺ: "من احتكر فهو خاطئ" (رواه مسلم). ورغب في العمل المقرون بالعفة، قال ﷺ: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه" (رواه البخاري). ودعا إلى تكافؤ الفرص في الكسب وتحفيز القادرين على العمل، قال ﷺ: "من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه، فإن أبي فليمسك أرضه" (متفق عليه).

و-القيم الوقائية والصحية

الصحة نعمة إلهية وهي "تاج على رؤوس الأصحاء لا يراها إلا المرضى" كما يقال، و"المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير" (رواه مسلم). وهي "تشمل جوانب الإنسان كلها: الجسمية والنفسية والروحية، فإذا أحسن الإنسان الاستفادةَ من نعمة الصحة والحفاظ عليها وعمل على تعزيزها وتقويتها فقد استمسك بالعروة الوثقى واستمتع بخيرات العافية وبركاتها، ونعم بالنجاة من عامة الأمراض والأسقام، وإنما يفلح في ذلك إذا سلك في حياته سلوكا يعزز صحته، واتبع في معاشه أسلوبا يزيد رصيده الصحي، ولجأ إلى الوقاية التي هي خير من قناطير العلاج".

ويمتلك الإسلام منظومة من القيم الحضارية الناظمة للسلوك الوقائي والصحي تبدأ بقواعد حفظ النسل كضرورة من الضروريات الخمس في الشريعة الإسلامية، فقد حددت الشريعة الإسلامية مقررات وقواعد لتنظم الصحة الإنجابية للأسرة بدءا باختيار الزوجين ورسم قواعد لتنظيم الأسرة عن طريق المباعدة بين الأحمال بالوسائل المشروعة، ودعت إلى رعاية الأم الحامل والمرضع وعلاج كل أسباب العقم وغير ذلك من التعليمات الإسلامية الشرعية المتعلقة بالصحة الإنجابية. وكلُّ ذلك تدعو الشريعةُ إلى نشره والتربية عليه وفقا للقيم الأخلاقية وأساليب

الحكمة المحقّقة للوعي الكامل بهذه القضايا لدى أجيال المراهقة والشباب والأزواج حتى يكون تصرفهم سليما ومتوازنا يستهدف صرف الشهوة الجنسية الطبيعية في مصرفها الطبيعي لتحقيق الغرض من بقاء النسل واستمرار الحياة والاستجابة لأمانة الاستخلاف.

كما نهى الإسلام عن كل ما يضر بالصحة الجسمية والنفسية من مخدرات وخمر وكافة المهلكات، ودعا إلى ممارسة الرياضة البدنية كالسباحة والرماية وركوب الخيل وغيرها، لأن الأمة بأبنائها ولن تسود أمة تخترقها الأمراض وتنهكها الأوبئة. فقد مر الرسول ﷺ بمجموعة من الشباب يتدربون على الرمي، فقال لهم مشجعا: "ارموا يا بني إسماعيل، فإن أباكم كان راميا" (رواه البخاري).

وحث على التداوي والتماس كل وسائل الاستشفاء، ودل الإنسان على صور من ذلك تجمع بين المادة والروح، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا...﴾(النحل:٦٨-٦٩). وعن عبد العزيز قال: دخلت أنا وثابت على أنس بن مالك فقال ثابت: يا أبا حمزة اشتكيت، فقال أنس: ألا أرقيك برقية الرسول ﷺ؟ قال بلى، قال: "اللهم رب الناس، مذهب البأس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت، شفاء لا يغادر سقما" (رواه البخاري). ونجد أن الإسلام سن قواعد في الحجر الصحي حتى لا تنتشر الأمراض والأوبئة، قال ﷺ: "الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل، أو على من كان قبلكم، فإن سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه" (رواه مسلم). وسن منظومة من الآداب والاحتياطات الصحية التي تكون وقاية وحصنا من انتقال العدوى والأمراض، قال ﷺ: "إذا ولغ الكلب في الإناء فاغسلوه سبع مرات وعفروه الثامنة في التراب" (رواه مسلم).

والخلاصة أن القيم الصحية والوقائية قائمة في مجملها على الوقوف عند حدود الله في الحلال والحرام وتقوية الجانب النفسي والروحي بالطاعات والنوافل وذكر الله والإيمان بقضائه وقدره، وكل هذه التوجيهات قيم إسلامية أصيلة تستهدف من بناء المسلم السوي القوي القادر على القيام بمهام الاستخلاف.

ز-القيم الحقوقية

خطاب حقوق الإنسان في التداول الفكري والثقافي المعاصر أصبح أكثر رواجا وذيوعا، والتوعية بالقيم الضامنة لحقوق الإنسان مثل العدل والمساواة والحرية والإنصاف وتكافؤ الفرص وغيرها من القيم أصبحت الشغل الشاغل للمنظمات الدولية والأهلية على حد سواء، بل وأصبحت مؤشرات التنمية البشرية في أي بلد تقاس بمدى احترامه لحقوق الإنسان.

ولسن نضيف جديدا إلى كتابات المفكرين المسلمين الذين فرغوا جهدهم وطاقتهم للدفاع عن المنظور الإسلامي في حماية الحقوق في منشوراتهم ومناظراتهم وندواتهم ومشاركاتهم الإعلامية، إلا أن الجهد الكبير من الناحية المنهجية ينبغي أن ينصب على ما يميز النظرية الإسلامية عن غيرها، والتمايز حاصل بالذات في أن نظرة الإسلام إلى حماية الحقوق لا تنحصر في حقوق الإنسان، وإنما يجعل هذا الجانب من الحق مندرجا ضمن منظور متكامل، فنحن حين نتحدث عن حقوق الإنسان انطلاقا من المرجعية المستندة إلى أحكام الإسلام وما ينسجم مع مقاصده من اجتهادات عالية، فإنما نفعل ذلك من منظور يبدأ أولا بالتربية على احترام حقوق الله، لأن من لا يحترم حقوق الله لا يمكن أن يحترم حقوق غيره، ثم التربية على احترام حقوق الإنسان، وبعد ذلك تأتي حقوق المحيط على الإنسان من حيوان ونبات باعتبارها كائنات مسخرة لا تقبل العبث ولا الإسراف وإنما تستغل بالعدل والقسط والإحسان، وبذلك كان تنظيم القيم الإسلامية لمجال الحقوق أوسع وأشمل وأكمل.. ويبرز هذا المنظور الشمولي في سؤال رسول الله ﷺ لمعاذ ﷺ حين قال له: "يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حقهم عليه؟" قال: الله ورسوله أعلم، قال: "ألا يعذبهم" (رواه البخاري).

إن الرصد المعرفي والعلمي الذي بينا من خلاله شمولية القيم الحضارية من منظور إسلامي لكل مجالات الحياة يحتاج إلى منهجية للتنزيل من أجل تربية الأجيال المتعاقبة على إدراك أهمية القيم في العمران من جهة، وأهمية استناد هذه القيم الحضارية إلى المرجعية الإسلامية القائمة على مبادئ الاستخلاف والتسخير والمسؤولية من جهة أخرى.

وانطلاقا من هذا المنظور جاءت الشريعة الإسلامية لتحمي حق الإنسان في الحياة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾(الأنعام:١٥١)، وقال ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والمارق من الدين التارك للجماعة" (رواه البخاري).

ودعت إلى سياسة الناس بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾(النساء:٥٨)، وقال ﷺ: "إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (رواه البخاري). ونظرت إلى الناس على اختلاف أعراقهم وأجناسهم نظرة مساواة في الإنسانية والوجود؛ قال ﷺ: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي ولا عجمي على عربي و لا أحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى" (رواه أحمد).

إن هذه القيم الرئيسة الحامية للحقوق بنظرة الإسلام الشاملة، لا تنظر إلى الإنسان نظرة اعتبار وتقدير إلا بقدر اعتباره وتقديره لحقوق الآخرين في علاقته مع خالقه ونفسه والناس والبيئة من حوله.

ثم إن الإسلام جعل من حماية الحقوق مقصده الأسمى حتى يتفرغ الإنسان للقيام بمهمة الاستخلاف بعد أن كرمه الله بنعمة التسخير. وفي ذلك يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة: وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة، وتحريم تفويت هذه الأصول الخمسة والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملة من الملل وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق".

ح- القيم الفنية والجمالية

إن النظرة الجمالية الاستبصارية جزء لا يتجزأ من المنظور الحضاري الإسلامي، إذ إن في كل نسمة خلقها الله مسحة من الفن والجمال تقتضي التأمل والاعتبار، والإنسان الذي خلق في أحسن تقويم مُطالَب بأن ينظر إلى كل المخلوقات من حوله ليقف على دقة الصنعة الإلهية. وفي القرآن الكريم آيات بقدر ما تدعو إلى النظر والاعتبار تبرز في المشاهد المختلفة وبأسلوب رائع مكامن الجمال في الكون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾(الحجر:١٦).

إن القيم الإسلامية قد جعلت من الفن والجمال سلما يرتقي للوصول إلى الله الخالق المتقن المبدع الجميل. ووسائلُ إدراك ذلك التأملُ في الكون وتوجيهُ طاقات الإنسان الإبداعية إلى ما يرسخ القيم الفاضلة، ويحفظ ذاك التناسق العجيب بين روعة التقويم في الخلق وسمو الروح، وقد كان ﷺ المثل الأعلى في ترسيخ مفاهيم الجمال الحقيقي للإنسان، فقد نقلت كتب السيرة عنه ﷺ صورا من العناية بلباسه وترجيل شعره وولعه بالطيب، كما نقلت كثيرا من توجيهاته للصحابة ﷺ من حوله بالحرص على نظام المسجد وارتياده بثياب حسنة عملا بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(الأعراف:٣١)، ونقل عنه ﷺ أنه كان يشجع ويتذوق أعذب الشعر الداعي إلى القيم الفاضلة، قال ﷺ: "الشعر بمنزلة الكلام؛ حسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام" (رواه البخاري في الأدب المفرد).

وصحح رسول الله ﷺ بعض المفاهيم الخاطئة المرتبطة بالجمال حين قال ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر"، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة فقال: "إن الله جميل يحب الجمال" (رواه مسلم). وكان ﷺ يحب أن يسمع القرآن من غيره ويدعو إلى تلاوته بصوت جميل حسن، قال ﷺ: "الماهر بالقرآن مع الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم" (رواه البخاري).

إن القيم الإسلامية قد جعلت من الفن والجمال سلما يرتقي للوصول إلى الله الخالق المتقن المبدع الجميل. ووسائل إدراك ذلك التأمل في الكون وتوجيه طاقات الإنسان الإبداعية إلى ما يرسخ القيم الفاضلة، ويحفظ ذاك التناسق العجيب بين روعة التقويم في الخلق وسمو الروح.

وهكذا يبدو أن القيم الفنية والجمالية في المنظور الإسلامي تذهب بالإنسان إلى ما هو أسمى من التلذذ برؤية العين لمشهد جميل في الكون أو سماعه لصوت شجي، إلى إدراك أسرار الوجود القائم على الإتقان قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩). فتلك الرسالة الحقيقية التي تحملها هذه القيم، كما أن الإسلام لا يهتم في مجال الفن والجمال بالمظهر الخارجي بل لابد من التلازم بين جمال الظاهر والباطن والمحيط، فتلك هي الصورة النموذج التي يُنتظر من المسلم أن يرسخها في أذهان الناس، يقول الأستاذ محمد قطب: "والفن الإسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الإسلام؛ إنما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي للوجود، هو التعبير عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان. هو الفن الذي يهيئ اللقاء الكامل بين الجمال والحق، فالجمال حقيقةٌ في هذا الكون، والحق هو ذروة الجمال، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود".

ط-القيم البيئية

إن العالم اليوم في حاجة في هذا المجال بالذات إلى قيم حضارية نابعة من مرجعية صلبة تجعل الإنسان مسؤولا عن كل ما يمكن أن يقترف من أفعال تضر بالبيئة، والنظرة الحضارية الإسلامية لهذا المجال تكشف عن وجود قيم سامية ناظمة للتعامل مع خيرات الكون من منظوري التسخير والاستخلاف والمسؤولية عن كل تصرف مخل بالتوازن البيئي، وترتكز القيم الحضارية الناظمة للسلوك البيئي في التصور الإسلامي على هذه الأبعاد الثلاثة؛ قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣). ونبه الإسلام إلى أن هذه الكائنات المسخرةَ هي في خدمة الإنسان إلى أن يأمر الله بفنائها، وأنها أمم وخلائق كأمة الإنسان تشترك معه في عبادة الخالق؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾(النحل:٤٩). {س}

وإذا كانت هذه القيم الحضارية وردت في القرآن الكريم مجملة من الناحية النظرية، فقد حولها رسول الله ﷺ إلى سلوكات تفصيلية تطبيقية، فرغب في الغرس والعناية بالنبات في غير ما حديث، ومنه قوله ﷺ: "ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة" (رواه البخاري).

ودعا إلى الاقتصاد في استعمال الماء، فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: "لا تسرف"، فقال: يا رسول الله أَوَفي الماء إسراف؟ قال: "نعم وإن كنت على نهر" (رواه أحمد).

ونهى عن تلويث الماء بالقاذورات، كما نهى عن التخلي في الظل وفي الطرقات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يبولن أحدكم في الماء الراكد ثم يغتسل فيه" (رواه البخاري). وعنه ﷺ أنه قال: "اتقوا الملاعن الثلاث: التبرز في الماء وفي الظل وفي طريق الناس" (رواه أبو داود). وشدد ﷺ الوعيد في حق من يعبث بالحيوان ويتخذه هدفا، حين قال: "ما من إنسان يقتل عصفورا فما فوقها بغير حق إلا يسأله الله ﷻ عنها، قيل: يا رسول الله وما حقها؟ قال: "أن يذبحها فيأكلها ولا يقطع رأسها ويرمي به" (رواه النسائي).

وأمر بالإحسان إلى الذبائح والانتفاع بها على قدر الحاجة، فعن شداد بن أوس قال: قال ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته" (رواه مسلم). كما حث ﷺ على العناية بالبيئة العامة؛ فأمر بإماطة الأذى عن الطرقات وأبواب المساجد والأماكن التي يرتادها الناس لقضاء مصالحهم ومآربهم، حيث قال: "الإيمان بضع وستون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان" (رواه مسلم). وحرص رسول الله ﷺ على أن تبدو المظاهر العامة للمسلمين وقد طبعها النظام والنظافة، قال ﷺ: "إن الله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا باليهود" (رواه الترمذي).

إن الرصد المعرفي والعلمي الذي بيّنّا من خلاله شمولية القيم الحضارية من منظور إسلامي لكل مجالات الحياة، يحتاج إلى منهجية للتنزيل من أجل تربية الأجيال المتعاقبة على إدراك أهمية القيم في العمران من جهة، وأهمية استناد هذه القيم الحضارية إلى المرجعية الإسلامية القائمة على مبادئ الاستخلاف والتسخير والمسؤولية من جهة أخرى، كما أننا في حاجة إلى تلمس هذه المنهجية في السنة والسيرة النبوية حتى نستخدمها في إبلاغ العالمين بأهمية المنظور الإسلامي في ترسيخ القيم، وحل الإشكالات والأزمات التي يعيشها الإنسان في عصرنا الحاضر كلما وجد نفسه بعيدا عن الله.. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب.

السنوات الذهبية

أيام ما قبل المدرسة

أ.د. هارون أوْجي *



تعرف السنوات بين (٠-٦) بأنها التعلم الذهبية قبل المدرسة، لأن سبعين بالمائة من المعلومات المؤثرة على تصرفات الفرد تؤخذ في هذه المرحلة، وتترسخ أسس شخصيته فيها.

إن بعض ما يتعلق بالتصرفات تنتقل عن طريق الوراثة وتكون موجودة منذ الولادة، وبالتالي فليس الطفل عجينة سهلة التشكيل والتغيير في يد الوالدين ولا في يد المربين، إلا أن للبيئة الاجتماعية دورا مهما في تشكيل وتطوير شخصية الطفل، ومن خلالها تتعرض المميزات والخواص التي ورثها الطفل للتغير. ومرحلة الطفولة هذه هي مرحلة "تغذية اللاشعور"، لذا فإن التعليم والتوجيه قبل مرحلة الدراسة هي أُولى وأهم مرحلة في الحياة التعليمية.

من يعطي التعليم قبل الانخراط في المدرسة؟

في ثقافتنا وتقاليدنا كان الطفل ينشأ في حجر أمه وجدته وجده ومع القصص التي يسمعها منهم، وكذلك في جو اللعب مع أخيه أو إخوانه أوأطفال الجيران، مقلدا تصرفات الكبار ومتخذا إياهم قدوة له في جميع تصرفاته، وهكذا يكتسب شخصيته. ولكن لم يُعد هذا الطراز من التعليم والتوجيه ممكنا ومتاحا في الظروف الحالية إلا للقليل من الأطفال. لأن بنية العائلة -ولاسيما في المدن- قد تغيرت، وضعفت العلاقات مع الأقارب والجيران. وأصبحت الأسرة وحدة صغيرة مؤلفة فقط من الأب والأم والطفل. فأصبح الطفل وحيدا لا يجد من يلعب معه، إما لعدم وجود إخوة له، أو بسبب فارق السن. كما انعدمت ساحات اللعب. أما التلفزيون الذي بدأ يَعرض برامج ومناظر جذابة -وقد تكون ضارة- بمجرد الضغط على زر فقد احتل بيوتنا.

ومع أن هذا الأمر يقلق العديد من العوائل، إلا أنها تضطر للرضوخ أمام الأمر الواقع لأنها لا تجد بديلا آخر لتلهية الطفل. فإذا أضفنا إلى هذا عدم مبالاة الوالدين، ونقصَ معلوماتهم حول تربية الطفل، إضافة إلى كونهم مرهقين بالعمل، فليس من الصعب حدس ما يُنفث إلى لا شعور الطفل من أمور. إذن، فمن الذي سيتولى

توجيهَ الأطفال وتعليمَهم وإرشادهم في مرحلة ما قبل المدرسة؟ وكم من أمّ تملك المعلومات التربوية الكافية التي تساعدها في تنشئة أطفالها النشأة الصحيحة من الناحية الاجتماعية والذهنية والروحية؟

ففي هذه الظروف السلبية التي ذكرناها من قبل هل تقوم الأم بهذه المهمة إن لم تكن عاملة أو موظفة؟ أم تقوم بها إحدى ربات البيوت إن كانت الأم عاملة؟ أم يجب إيداع هذه المهمة إلى حضانة الأطفال؟ وما هي التطبيقات الجارية في هذا الخصوص في العالم؟ وما هو التطبيق الحالي لهذا الأمر في بلادنا؟ وأي نتائج تم الحصول عليها من هذه التطبيقات المختلفة؟ إن الأجوبة التي سنحصل عليها عن هذه الأسئلة وما شابهها ستقودنا -على الأرجح- إلى فهم جديد وتناول جديد في هذا الصدد.

البيئة الاجتماعية والطفل

من الحقائق المعروفة أن أعدادا كبيرة من الأطفال في العالم ينشؤون في بيئة لا تساعدهم على تطوير وتنمية قابلياتهم. صحيح أنه لا يمكن عمل شيء يُذكر في صدد تغيير العوامل الجينية المؤثرة سلبا على الطفل، ولكن يمكن تصحيح وتعديل مؤثرات البيئة السلبية بمقياس كبير. والحقيقة أن الأفراد يملكون قابليات أكثر مما يستطيعون تقديمها وتحقيقها حاليا. ويمكن تطوير القابليات بمساعدة ومعونة البيئة المحيطة بالفرد. وفي هذا الصدد تكتسب التربية والخدمات المقدمة للطفل قبل دخوله المدرسة أهمية كبيرة.

التطبيقات الموجودة في العالم

وفي السنوات الأخيرة زادت العناية -ولاسيما في الغرب- بالنظريات وبالتطبيقات المختلفة لهذا الموضوع وبتطوير البرامج حولها، وبدؤوا يستعملون مصطلح "العناية والتعليم المبكر للطفل" في وصف هذه الخدمات المقدمة للطفل. وهذه الخدمات متنوعة؛ فبعضها تركز على الناحية الصحية، وبعضها على التغذية، وبعضها على الناحية التربوية والتعليمية المبكرة. كما توجد هناك برامج تقوم بتقديم خدمتين أو ثلاث خدمات معا. وتطلق أسماء مختلفة على هذه البرامج؛ منها: "نهضة المجتمع" أو "التربية والتعليم المساند المقدم للأبوين"، أو "رعاية الطفل وتعليمه المبكر" أو "البرامج الموضوعة للمؤسسات التي تقدم تعليما مبكرا للطفل قبل مرحلة الدراسة في المدرسة".

البرامج الموضوعة في هذه المؤسسات المركزية تقدم خدماتها للأطفال في إطار مؤسسة. ونظراً لقيام هذه المؤسسات بدفع رواتب عالية للمربين المحترفين، وتوفير ألعاب غالية للأطفال وبرامج مكْلِفة ودفع مصاريف كبيرة لإيجار البناء وتدفئته وللضرائب ولغيرها من المصاريف الأساسية، فإن أجور هذه المؤسسات تكون عالية بحيث لا تستطيع العوائل الفقيرة الاستفادة من خدماتها. وفي الدول الضعيفة اقتصاديا يكون عدد مثل هذه المؤسسات قليلا، وهي تقدم خدماتها إلى العوائل التي تكون إيراداتها عالية أو أكثر من المتوسط، وتُحرَم منها الطبقة التي من المفروض أن تقدم لها هذه الخدمات أوّلا. وبعض هذه المؤسسات تقتصر على تقديم خدمات محددة فقط، كالعناية بأطفال العاملين في مؤسسات معينة.

دور الدولة في تطوير التعليم المبكر

ولكي تنتشر خدمات التربية والتعليم للأطفال قبل سن المدرسة يجب على الدولة ألا تعد هذه المؤسسات مؤسسات تجارية، فلا تأخذَ منها الضرائب، بل ربما عليها مساعدتها ماليا، لكي تستطيع هذه المؤسسات -التي تضطلع بأداء وظيفة مهمة جداً- تقديم خدماتها بأسعار منخفضة وللطبقات الفقيرة ذات الدخول المحدودة. وفي السنوات الأخيرة بدأت بعض المدارس الابتدائية بفتح مدارس حضانة في سن السادسة داخل المدرسة، وعادةً ما تكون أجور خدماتها أرخص من تلك المؤسسات الخاصة. ولكن هذه المدارس عندما أهملت الأطفال في سن ٣-٥ تكون قد أبقت هذه المشكلة دون حل. كما أن وجود أطفال بعمر ست سنوات تحت نفس السقف مع صبيان بعمر ١٣-١٤ سنة وتَلَقّي التعليم نفسه واشتراكهم معهم في ساحة اللعب نفسها أو الحديقة نفسها لا يكون شيئاً صحيحاً.

إن نسبة الاستفادة من برامج الرعاية والتعليم المبكر في تركيا اعتبارا من سنة ٢٠٠٠م حتى الآن هي ٩,٨٪ فقط. بينما تبلغ هذه النسبة في أوروبا ٦٧,٨٪ وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٦٢,٧٪، وفي الدول النامية ٢٠٪ تقريباً.

ويجب أن تكون من أهداف الدولة القيام بنشر وتوسيع التعليم قبل المرحلة الدراسية، وتقليل الفروق بين المؤسسات التي تعطي هذا النوع من التعليم، ووضع معيار معين في هذا الصدد، وتهيئة برامج تعليمية مقروءة ومرئية ومسموعة. غير أن النشاطات المبذولة في هذا الصدد ليست كافية.

من جهة أخرى بدأت بعض دور النشر وبعض الشركات بتهيئة منشورات وأفلام وبرامج حول التعليم قبل المرحلة الدراسية. والآن توجد في الأسواق حكايات مشوقة للأطفال حول البطولات والتضحيات والحب دون مقابل، وحول الاستقامة وحب الطبيعة وحب الله ورسوله. ومع أن أعداد هذه الكتب ليست كبيرة إلا أنها موجودة وأعدادها ومستوياتها في ارتفاع مستمر. وتقوم القصص المصورة وبرامج الأقراص المدمجة المقروءة والمرئية بلعب دور إيجابي في تطوير الناحية الاجتماعية والذهنية للطفل، إلا أن على الأبوين القيام بمعاونة الأطفال في استعمال هذه البرامج. فالأطفال يقومون بطرح أسئلة عديدة وهم يشاهدون هذه البرامج أو يقرؤون هذه القصص، وعليهما الإجابة على هذه الأسئلة بشكل صحيح ودون ضجر أو ملل. فهذه الأجوبة ستطور ذهن الطفل وفكره وروحه. فإن لم يخصصا وقتا خاصا للطفل، لم يستطع الاستفادةَ الكاملة منها. ولكن المؤسسات المختصة بتربية الطفل تستطيع الاستفادة من هذه البرامج بشكل أفضل ضمن خطة معينة تُعِين الطفل على الاستفادة الكاملة منها.

نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية

إن وضع معايير معينة لتقييم نتائج التعليم قبل المرحلة الدراسية يعد مشكلة مهمة. ومع هذا فقد استعملت معايير عديدة في هذا الصدد؛ منها مدى نجاح الطفل في المرحلة الدراسية فيما بعد، وكذلك مدى نجاحه في الحصول على عمل أو مدى بعده عن ارتكاب المخالفات القانونية. فقد أجريت مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية تجارب على آلاف الأطفال الذين مروا من مثل هذه البرامج. وأثبتت هذه التجارب أن الأطفال الذين تلقوا هذا التعليم واشتركوا في هذه البرامج، كانوا أسرع تكيفا مع المدرسة وأكثر نجاحا في المرحلة الأخيرة للدراسة الثانوية. بالإضافة إلى أن تكيفهم الاجتماعي كان أفضل، ونسبة حصولهم على العمل بعد التخرج أكبر، ونسبة اقترافهم الجرائم أقل. كما أن دوافع الحصول على نجاح أكبر وعلى وظائف رفيعة في مهنهم أكسبتهم شخصية مستقرة وأكثر إيجابية، أي حصلوا على مكاسب نفسية أيضا. وقد تم عزو كل هذه النتائج الإيجابية إلى آثار هذه البرامج في تطوير قابلياتهم في التعلم وإلى عوامل عديدة أخرى، مثل عوامل المعلم والعائلة والبيئة والتفاعلات المتقابلة لهذه العوامل. ولوحظ أن الأطفال الذين تلقوا هذه البرامج التعليمية المساندة قبل المرحلة الدراسية تطورت لديهم منذ البداية، الرغبةُ في التعلم، ونمت قابلياتهم في هذا الصدد بسرعة، إلى جانب زيادة اقترابهم من معلميهم، وقيامهم بأداء واجباتهم المنزلية برغبة ودقة أكبر. كما نمت عندهم القابلية للعمل الاجتماعي.

إننا لا نملك معلومات ولا تقييمات حول مدى تأثير هذه البرامج التعليمية قبل المرحلة الدراسية على توجيه وتشكيل المشاعر الإنسانية والمعنوية لدى الطفل كالاستقامة والتضحية وحب الخير وحب المساعدة والوفاء. ولكن هناك اعتقاد سائد بأن هذه المرحلة القصيرة هي أكثر المراحل قابلية، على التأثير وعلى تشكيل شخصية الطفل.

وفي السويد -التي تعد من أفضل الدول التي تعطي للأطفال هذا التعليم المبكر وفي أرقى مستوى- ظهر أنه كلما قُدمت خدمات هذا التعليم بشكل مبكر للأطفال، كانت النتائج إيجابية، وإيجابيةُ النتائج تتناسب طرديا مع مدى جودة مستوى المؤسسة التي تقوم بهذه الخدمة.

التعليم المبكر وآثاره الاجتماعية

لكل مجتمع غايةٌ مختلفة في تنشئة الأطفال؛ فاليهود -مثلا- لكي يديموا وجودهم في مجتمعاتهم وفي العالم، اهتموا بتنمية مواهب الاقتحام -ولاسيما في عالم التجارة والمشاريع- واللين وتحقيق التفوق في العلاقات الإنسانية، لذا يسعون إلى تنشئة أطفالهم بهذه المواصفات. أما الذين يعيشون في القرى والأرياف فيحاولون تنشئة أطفالهم بحيث يتكيفون بسرعة مع الظروف الطبيعية. أما الأقوام المحاربة فترى في خصال الشجاعة والتضحية والارتباط بالوطن أهم الخصائص والقيم التي يجب أن ينشأ عليها الأطفال.

أما في تركيا فإن أهم الأولويات الخلقية الاجتماعية التي تهتم بها العائلات في تربية الأطفال هي إطاعة الوالدين والاتزان والوقار وإظهار المحبة للآخرين وسهولة التفاهم معهم. وبعد هذه الصفات وبجانبها تهتم العائلات بأوصاف أخرى كتنمية القابلية الفكرية والذهنية، والارتباط بالقيم الخلقية الوطنية والثقافية، وحرية التفكير وسهولة التعبير عن الرأي والشعور بالمسؤولية.

وهناك عائلات تهتم في مرحلة ما قبل المدرسة بتطوير الناحية

التعليمية في الطفل، كسرعة تعلمه الأعداد وتمييزه للألوان، وسرعة تعلمه لبعض المصطلحات والأسماء. والحقيقة أن هذا مجرد جزء من التوجه الإنساني عند الفرد. بينما يجب تناول قضية تربية الطفل وتعليمه بشكل كلي وشامل. إن الاقتصار على إعطاء الأهمية لتنمية ذكاء الطفل سيؤدي إلى تناسي الآثار الإيجابية للأمور الضرورية الأخرى؛ مثلا إن نقص ثقة الطفل بنفسه قد يفتح الطريق إلى نقص في الدوافع للتقدم في الناحية الثقافية، مما يؤدي في المطاف الأخير إلى تقليل درجة الذكاء وإلى هبوط في النجاح المدرسي وإلى فشل في مستقبل حياته. لذا يجب ألا يُجبر الطفل في هذا السن على حفظ أشياء معينة، وألا يوضع في مقارنة أو مباراة مع غيره.

تطوير الثقة بالنفس لدى الطفل

لكي يطور الطفل ثقته بنفسه ويتعود على المبادرة والتصرف بشكل مستقل، على أقرب محيط اجتماعي إليه -ولاسيما أمه- مساندته ومساعدته في هذا الأمر. فإن كان الطفل يتلقى التعليم في مؤسسة تعطي التعليم المبكر، يجب إعطاء هذه المساندة والمعاونة للطفل من قِبَل هذه المؤسسة بالتعاون مع عائلته. فإن لم يكن في استطاعته الاستفادة من مثل هذه المؤسسة التعليمية، فيمكن إعطاء الأمهات البرامج التعليمية المبكرة لأطفالهن. ولكن لا يوجد في بلادنا مثل هذا التطبيق. أما المتوفر حاليا فهو اشتراك الأمهات في الندوات والاستماع إلى محاضرات تتناول هذا الأمر، أو مشاهدة البرامج التلفزيونية أو الاستماع إلى برامج في الإذاعة تتناول هذه الناحية، وتعطى -بمقياس معين- الإرشادات للأمهات حول كيفية التصرف مع أطفالهن. ولكن لا يمكن عد هذا الأمر برنامجا من برامج التعليم.

بعد أن يبلغ الطفل السنة الثالثة من عمره يشعر بحاجة إلى تجربة أشياء جديدة. لذا يحتاج إلى اللعب مع أطفال في سنه أو أكبر من سنه. فعندما يبلغ الطفل هذا العمر، يكون الأساس البيولوجي له قد تكامل عنده للّعب مع أقرانه وتحمّل خيبة الأمل عندما يردّه أحدهم أو يرفض اللعب معه. كما أنه يصل في هذه المرحلة العمرية إلى تحمل الأثر النفسي عند البعد عن منزله لفترة. وفي المؤسسات التعليمية التي تنظم كل شيء حسب حاجة الأطفال يجد بسهولة من يلعب معه، لأن المؤسسة تيسر وتنظم هذا الأمر. وفي أثناء اللعب مع أقرانه يستطيع أن يقيس مقدرته وما يستطيع فعله وإنجازه، ويكتسب عادةَ البقاء لمدة طويلة مع غيره والانشغال معهم في اللعب. وعندما يلعب مع غيره سيدرك أهمية قواعد اللعب، ويشعر بمدى ضرورة التعاون والتساند مع الآخرين. وعندما يرى أنه لا يستطيع في كل مرة أخْذ اللعبة التي تبدو جذابة له، يتعلم الصبر والتحمل. وعندما يقوم بصيانة حقوقه يتعلم ضرورة صيانة حقوق الآخرين ويتعلّم مبدأ المشاركة. كما يتعلم من مراقبة أصدقائه، كيف يأكل وحده وكيف ينجز عمله بنفسه، ويكتسب هذه العادات. وهكذا ينجح الطفل في التصرف بشكل مستقل وهو في بيئة لها قواعد اجتماعية، وتزداد قابليته في التعبير عن نفسه، ويثرى مخزونه من الكلمات.

وتنجح هذه المؤسسات التعليمية في جعل الأطفال الخجولين أطفالا واثقين من أنفسهم وفعالين. ومن جهة أخرى يتحول الأطفال المدللون كثيرا والوقحون، إلى أطفال أقل أنانية وأكثر رغبة في المشاركة، أي أكثر اجتماعيا.

النتيجة

تقوم الأمهات العاملات بإيداع أطفالهن في ساعات عملهن إلى آخرين للعناية بهم. والمهم هنا ليس رعايتهم فقط، بل تعليمهم وتربيتهم. لذا فإنه بدلا من إيداع الطفل عند عائلة، يكون من الأفضل -من ناحية تطوير قابلياته من جميع النواحي- إيداعه في مؤسسة تعليمية ذات مستوى جيد يمكن الوثوق بها. وحتى الأمهات غير العاملات في حاجة إلى مثل هذه المؤسسات. وليس من الصحيح قيام المجتمع بتأنيب هذه الأم على أساس أنها لا تستطيع العناية بطفل واحد، وأنها لا تشعر بالمسؤولية تجاهه ولا تقوم بنفسها بتربيته وتعليمه بل تدع هذا الأمر إلى مؤسسة. مثل هذا اللوم غير صحيح ولا معنى له. لأن الطفل عندما يلعب مع أقرانه ضمن نظام معين وضمن حرية بمقياس معين وضمن حب، تتطور قابلياته. والمهم هنا ليس البقاء بجانب الطفل طوال اليوم، بل حصر الاهتمام والعناية به ولو لمدة عشرين دقيقة، وإظهار الحب له وتلبية حاجاته. ومثل هذه المدة الزمنية -التي يجب تخصيصها له لإبداء وإظهار شوقك ومحبتك له- متوفرة لديك دون شك. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.



ضوء الشمس ونور القمر

أ.د. زغلول النجار *

الضوء (الضياء): هو الجزء المرئي من الطاقة الكهرومغناطيسية (الكهربية/المغناطيسية) والتي تتكون من سلسلة متصلة من موجات الفوتونات التي لا تختلف عن بعضها البعض إلا في طول موجة كل منها، وفي معدل ترددها. (الفوتون: هو الجسيم الأولي المسؤول عن الظواهر الكهرومغناطيسية).

وتتفاوت موجات الطيف الكهرومغناطيسي في أطوالها بين جزء من مليون مليون جزء من المتر بالنسبة إلى أقصرها وهي أشعة "جاما"، وبين عدة كيلومترات بالنسبة إلى أطولها وهي موجات الراديو (المذياع أو الموجات اللاسلكية)، ويأتي بين هذين الحدين عدد من الموجات التي تترتب حسب تزايد طول الموجة من أقصرها إلى أطولها: الأشعةُ السينية، والأشعة فوق البنفسجية، والضوء المرئي، والأشعة تحت الحمراء.

وعين الإنسان لا تستطيع أن تلتقط من هذه الموجات سوي الضوء المرئي -أطوال تتراوح بين ٤٠٠٠-٧٠٠٠ أنجستروم- (والأنجستروم يساوي جزءا من عشرة بلايين جزء من المتر) وطول الموجة يتناسب تناسبا عكسيا مع ترددها (أي عدد مرات ارتفاع الموجة وانخفاضها في الثانية الواحدة)، وحاصل ضرب هاتين الكميتين يساوي سرعة الضوء (حوالي ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية) وموجات الضوء المرئي أسرع من موجات الراديو بحوالي بليون مرة، وبالتالي فإن أطوال موجاتها أقصر ببليون مرة من أطوال موجات الراديو.

الضوء الأبيض والأطياف

والضوء الأبيض هو عبـــارة عن خليط من موجات ذات أطوال محددة عديدة متراكبة على بعضها البعض، ويمكن تحليلها بإمرارها في منشور زجاجي أو غير ذلك من أجهزة التحليل الطيفي، وقد أمكن التعرف على ســـبع من تلك الموجات، أقصرُها هو الطيف البنفسجي (ويقترب طول موجته من ٤٠٠٠ أنجستروم)، وأطولها هو الطيف الأحمر (ويقترب طول موجته من ٧٠٠٠ أنجستروم)، وبينهما البرتقالي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، وغير ذلك من الألوان المتدرجة في التغير فيما بين تلك الألوان السبع، وإن كانت عين الإنسان لا تستطيع أن تميز منها سوى هذه الألوان السبعة.

الضياء وتركيبة الشمس

وتنتج طاقة الشـــمس من عملية الاندماج النووي والتي يتم فيها اتحـــاد أربعة من نوى ذرات الأيدروجـــين لتنتج نواة واحدة من نوى ذرات الهيليوم، وينطلق الفرق بين مجموع كتلة الأربع نوي لذرات الإيدروجين وكتلة نواة الهيليوم على هيئة طاقة (تساوي ٠,٠٢٨٢ وحـــدة ذرية لكل تفاعل)، وهـــذه الطاقة الناتجة عن تلك العملية يكون أغلبها على هيئة أشـــعة جاما (حوالي ٩٦٪) وجزء قليل على هيئة النيوترينونات (Neutrinos) (في حدود ٤٪)، وسرعان ما تتحول أشعة جاما إلى حرارة بينما تهرب النيوترينونات في الحال وتفقد.

وتشير الدراسات الشمسية إلى أن هذا النجم المتواضع قد بدأ بتركيب كيميائي يغلب عليه عنصرا الإيدروجين (حوالي ٩٠٪)، والهيليـــوم (حوالي ٩٪) مع آثار طفيفـــة من عناصر أخرى مثل الكربون النتروجين والأوكسجين (في حدود ١٪).

وبالتركيز التجاذبي لتلك الكتلة الغازية بدأت درجة حرارتها في الارتفاع، وعند وصول الحرارة إلى المليون درجة مئوية بدأت عملية الاندماج النووي في التفاعل وانطلقت الطاقة النووية للشمس التي رفعـــت درجة حرارة لبها إلى أكثر مـــن ١٥ مليون درجة مئوية، ورفعت درجة حرارة ســـطحها إلى ٦٠٠٠ درجة مئوية.

وعمليـــة الاندماج النووي في داخل الشـــمس عملية معقدة للغاية، ولا داعي للدخول في تفاصيلها هنا حتى لا يغيب عنا الهدف من هذا المقال، ولكن محصلة هذه العملية هي الارتفاع بنســـبة الهيليوم في قلب الشـــمس من ٩٪ إلى حوالي ٣٠٪، وإنتاج طاقة الشمس المتمثلة في الطيف الكهرومغناطيسي، الذي زود الأرض وغيرها من أجرام المجموعة الشمسية بأغلب الطاقة التي تحتاجها.

والطيف المرئي من مجموعة أطياف الطاقة الكهرومغناطيسية المنطلقة من الشمس هو المعروف باسم ضوء الشمس، وعلى ذلك فالضوء عبارة عن تيار من الفوتونات المنطلقة من جسم مشتعل، ملتهب، متوقد بذاته، ســـواء كان ذلـــك بفعل عملية الاندماج النووي كمـــا هو حادث في داخل الشـــمس وفي داخل غيرها من نجوم الســـماء، أو من جسم مادي تستثار فيه الإليكترونات بعملية التســـخين الكهربائي أو الحراري، فيقفز الإليكترون من مســـتوى عال في الطاقة إلى مستوى أقل، والفارق بين المستويين هو كميـــة الطاقة المنبعثـــة (QuantumEnergy) على هيئة ضوء وحرارة، وتكون ســـرعة تردد موجات الضوء الناشـــئ مساوية لسرعة تحرك الشحنات المتذبذبة بين مستويات الذرة المختلفة من مثل الإليكترونات.

وعلى ذلك فإن مصادر الضوء هي أجســـام مادية لها حشد هائل من الجسيمات الأولية المستثارة بواسطة رفع درجة الحرارة من مثـــل الإليكترونات وغيرها من اللبنات الأولية للمادة. وأهمُّ مصادر الضوء بالنســـبة لنا (أهل الأرض) هي الشمس ووقودها هو عملية الاندماج النووي.

والمصابيح الكهربائية تنتج الضوء عن طريق تســـخين سلك من معادن الإشعاع، وكلما ارتفعت درجة الحرارة زادت كمية الضوء المشـــع وارتفعت معدلات تردد موجاته. وبنفس الطريقة يحترق فتيل الســـراج بإشعاله بواســـطة احتراق الزيت (من مثل زيت الزيتون) أو النفط (الكيروسين) أو الكحول فيشع بواسطة الترددات التي يمتصها، وكلما ارتفعت درجة حرارته زادت قدرته على إشـــعاع الضوء، وذلك بزيادة كميـــة الضوء الصادر منه، وارتفاع معدلات تردده.

وعلى ذلك فإن الجسم المادي عندما يسخن فإنه يشع بمقدار الطاقة التي يمتصها برفع درجة حرارته بأية واسطة متاحة.

وتختلف الصفات البصرية للمواد في درجات الحرارة الفائقة، وذلـــك لأن ذبذبة أيٍّ من الفوتونات أو الإليكترونات تتم بعنف شـــديد فتتداخل موجات الطيف الكهرومغناطيســـي -ومنها موجات الضوء المرئي- مع بعضها البعض تداخلا كبيرا مما يؤدي إلى حدوث الكثير من الظواهر غير المتوقعة، وذلك لأن الموجات الكهرومغناطيسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمصادرها وكواشفها.

وضوء الشـــمس عند مروره في الطبقات الدنيا من الغلاف

الغازي للأرض يتعــرض للعديد من عمليات الامتصاص والتشـــتت والانعـــكاس على كل من هبــاءات الغبار، وقطيرات الماء وبخـــاره، وجزيئات الهواء الموجودة بتركيز عال نسبيا في هذا الجزء من الغلاف الغازي لـــلأرض فيظهر بهذا اللون الأبيض المبهج الذي يميز فترة النهار.

نور القمر

كذلـــك يتعـــرض ضوء الشـــمس للعديـــد من عمليات التشـــتت والانعكاس عندما يســـقط على سطح القمر المكسو بالعديد من الطبقات الزجاجية الرقيقة والناتجة عن ارتطـــام النيازك بهذا الســـطح، والانصهار الجزئي للصخور على ســـطح القمر بفعل ذلك الارتطام. فالقمر -وغيره من أجرام مجموعتنا الشمسية- هي أجسام معتمة باردة لا ضوء لها ولكنهـــا يمكن أن تُرى لقدرتها على عكس أشـــعة الشـــمس فيبدو منيرا، وهذا هو الفرق بين ضوء الشـــمس ونور القمر. فنور القمر ناتج عن تشـــتيت ضوء الشمس على سطحه بواسطة القوى التي يبذلها الحقل الكهرومغناطيسي على الشحنات الكهربية التي تحتويها كل صور المادة. فالحقل الكهرومغناطيسي المتذبذب لضوء الشمس الساقط يحدث قوة دورية ضاغطة على كل شـــحنة إليكترونية مما يجعلها تقوم بحركة متناسقة مع تردد موجات الطيف الأبيض.

ومن الثابت علميا أن شحنة متذبذبة تشع في جميع الاتجاهات -فيما عدا اتجاه حركتها- مما يبرر عمليات تشتت الضوء، وهي عمليات تعتمد على عددِ وحجمِ وبنيةِ وهيئةِ واتجاهاتِ وتفاعلِ كل من الجســـيمات القائمة بمثل هذه العمليات من التشتت مع بعضهـــا البعض، والصفاتِ الحرارية/الديناميكية للوســـط الذي تتشـــتت فيه. ومن المعروف أن تردد الضوء الســـاقط يتفق تماما مع تردد الشعاع الســـاقط مع تباعد قليل بين خطوط الأطياف المختلفة بسبب حركة الجسم المشتت للضوء الساقط عليه، ولذلك تأتي خطوط أطياف الشعاع المشتت بشكل أضعـــف من خطوط أطياف الشـــعاع الساقط من أشعة الشمس.

الدقة البالغة في التفريق بين الضـــوء المنبعث من جسم ملتهب، مشتعل، مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء علـى جسم مظلم بارد وانعكاســه نورا من سطحه لا يمكـن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنـة إلا الله الخالق، فهذا الفـرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه.

التعبير القرآني

انطلاقا من هذه الحقائق العلمية الـــتي تمايز بين الضـــوء الصـــادر من جسم مشتعل ملتهب مضـــيء بذاتـــه، في درجات حـــرارة عالية -قد تصـــل إلى ملايين الدرجـــات المئوية كما هو الحال في قلب الشمس-، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد يتلقى شعاع الضوء فيعكسه نورا، ركز القرآن الكريم على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجا وكون القمر نورا فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(يونس:٥). وقال تبارك اسمه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَـمَوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾(نوح:١٥-١٦). وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّـــمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(الفرقان:٦١).

وقابل الظلمات بالنور وليس بالضياء في آيات كثيرة من مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾(الأنعام:١).

ووصف الشمس بأنها "ســـراج" وبأنها "سراج وهاج" فقال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾(النبأ:١٣).

وحينما وصف خاتم أنبيائه ﷺ بأنه ســـراج (بمعنى أنه مضيء بذاته) وأضاف إلى وصف السراج أنه منير فقال عز سلطانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـــاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦).

وحينما وصف النار وصَفها بالضياء ووصف أشعتها الساقطة



على من حولها بالنور فقـال عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ﴾(البقرة:١٧).

ووصف أشعة البرق بأنها ضوء فقال -وهوأصدق القائلين- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَـوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِـمْ قَامُوا﴾(البقرة:٢٠)، ووصف ﷻ الزيت بأنه يضيء، ووصف سـقوط ضوئه على ما حوله بالنور، فقال تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْـكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَـاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَـا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(النور:٣٥). وقال عن غيبة الشـمس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾(القصص:٧١).

هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسـم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسـه نورا من سـطحه لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سـنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيـق لم يدركه العلمـاء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه.

فسـبحان الذي أنزل القرآن الكريم، أنزله بعلمه، على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وتعهد بحفظه فحفظ على مدى أربعة عشر قرنا أو يزيد بنفس لغة الوحي (اللغة العربية) دون زيادة حرف واحد، أو نقص حرف واحد، وأبقـى فيه تلك الومضات النورانية من حقائق الكون وسنن الله فيه شاهدة على صدقه، وحجة على أهل عصرنا وأهل كل عصر يأتي من بعده إلى قيام السـاعة. فاعتبروا يا أولي الألباب! والحمد لله على نعمة الإسـلام، والحمد له على نعمة القرآن، والحمد لله على إرسال النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ شـاهدا ومبشـرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. فصلى الله وسـلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. ■

(*) أسـتاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشـؤون الإسلامية / مصر.

جيل الربيع

يا جيل الربيع،
يا زهراً فواحاً،
من بعيد أنتَ آتٍ،
ناشدتُكَ الله،
هلاَّ أسرعتَ،
وإلينا أتيتَ،
وصحارانا سقيتَ،
وحقولنا رويتَ..

* * *



أغنية للروح

عبد العزيز المقالح *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
غيرُكَ في الوجود لا أحدْ،
الأزلُ القديم أنتَ والأبدْ،
يا سيدَ الزمانِ
والمكانِ!
لا شريكَ، ولا ولَدْ،
أنتَ الجمالُ والكمالُ
والسلامُ
والصَّمَدْ.

* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
حينَ تضيقُ الروحُ في الجسدْ،
وينهضُ العدوُّ منْ عَباءةِ الحبيبِ
ناشراً صحائفَ الحسدْ،
تنهدمُ القبابُ في ندى الروحِ
وتعتري الحياةَ رعشةٌ
وظلمةٌ منَ الكَمَدْ،
ومثلَما تنكسرُ المياهُ في النَّهرِ
وتطرحُ الزَّبَدْ
ولا أحدْ.

* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
يا حاديَ الشُّجونِ،
أشجاني كثيرةٌ..
فلا عَدَدْ
ولا أَمدْ،
وكلَّما ترنَّمَ الضوءُ على الأفْقِ،
طواهُ الصَّمتُ وارتعدْ
وجفَّ صوتُ النَّايِ
في ضميرِ اللَّيلِ
وارتختْ أوتارُ نجمٍ
عنْ مدارِهِ شَرَدْ.

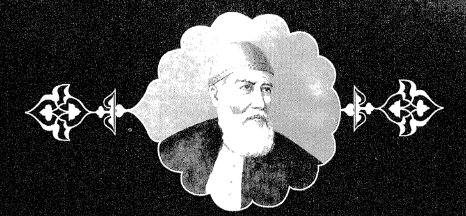
* * *

مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...
الناسُ في كَبَدْ،
والأرضُ -يا سيِّدَها- تبدو وحيدةً
بلا سندْ،
وليسَ للحبِّ مكانٌ في صَحارانا،
ولا بلدْ..
الياسمينُ راحلٌ
وليسَ غيرُ القحطِ والبَدَدْ،
يا سيِّدي..
مَدَدْ، مَدَدْ، مَدَدْ...

(*) أستاذ الأدب العربي في قسم اللغة العربية، جامعة صنعاء / اليمن.

إنْ أردتَ إنسانا فابحث عنه تحت لسانه، أما إنْ أردتَ صاحبا فاصحب الله يغنك عن كل صاحب، واتخذ القرآن رفيقا يغنك عن كل رفيق..

* * *



عملاق الأدب العثماني "فضولي"

عوني عمر لطفي أوغلو *

الشاعر، هو محمد بن الملا سليمان البياتي المنسوب إلى بغداد، حيث قضى ردحا من عمره. والمشهور أنه عاش بـ"كربلاء" ومات بها ودفن فيها. وكان مشتغلا بإشعال القناديل والشموع في الصحن الحسيني. فقد عاش حياة متواضعة مع اشتهاره في الآفاق وهو حي. ولادته تسبق سنة (١٤٨٠م)، بدليل قصيدة بالفارسية نظمها للأمير "ألوند"، من أمراء دولة "آقْ قُويُنْلُو" التركمانية في بلاد العراق وما جاورها. وإذ إن وفاة هذا الأمير كانت في سنة (٩١٠هـ/١٥٠٤م)، فلابد أنه كان شابا عندئذ في سنه العشرين، لأن نظمه بالفارسية متأخر عن نظمه بالتركية. فسنة ولادته تقدر كما مرّ آنفا. أما وفاته ففي عام الطاعون سنة (٩٦٣هـ/١٥٥٥-١٥٥٦م) مصابا بها. فاستظل بظل ثلاث دول عاصرها هي دولة "آقْ قُويُنْلُو" والدولة الصفوية ثم الدولة العثمانية. وقد عين السلطان سليمان القانوني راتباً له، وله مراسلات مع السلطنة بشأنه.

و"فضولي" هو مَخْلَصه الشعري على عادة شعراء الترك في اتخاذ مَخْلَص لهم. يقول الشاعر إنه تلقب بهذا المخلص حتى ينفرد به لانصراف الشعراء عنه لدلالته المتواضعة. فإن مفهومه بالتركية هو: الزائد الذي لا نفع منه. ولكن للاسم معنى بالضد يدل على زيادة الفضائل والمكارم، وهي مما يحوزه الشاعر بجدارة. فإنه كان متواضعا في حياته، منصرفا عن بهارج الدنيا وترف الحياة وحب المقام، مع اكتسائه بفضائل العلوم النقلية والعقلية من فقه وكلام وحديث وطب وفلك، زيادة على إمارته للشعر بالتركية والفارسية.

ومن منظوماته ديوانه بالتركية، وديوانه بالفارسية، وديوان ليلى ومجنون (بالتركية) الذي يزيد على ثلاثة آلاف بيت، وديوانٌ مثنويٌّ بالتركية من ٤٤٤ بيتاً، وديوان "ساقي نامَه" من ٣٢٧ بيتاً من الشعر التصوفي، وترجمة شعرية لأربعين حديثا. ومن تآليفه "حديقة السعداء" في واقعة كربلاء، و"مطلع الاعتقاد في معرفة المبدأ والمعاد" في العقائد (بالعربية).

هو من أعظم شـعراء الترك والعجم. كما يعَدّ من شـعراء العرب. وأزعم أن شـعره بالعربية يشوبه التكلف والاصطناع، وهو دون شـعره التركي والفارسي بأشـواط. فقد بلغ فيهما الذروة، حتى عده العلامة "حسـين مجيب المصـري" في كتابه "فضولي البغدادي"، أميرا على الشـعر التركي وفوق الشـاعر "باقي". و"فضولي" شاعر ملتزم، يسند شعره بالعلم والفن. يقول في مقدمة ديوانه الفارسـي: "إن الشعر بغير علم جدارٌ من غير أسـاس، وغايته ألاّ يُعتَدَّ به". ويقـول في بيت له: "إن من يرفع كلامه يرفعه بالصدق. وإن قَدْر الكلام بقَدْر أهله". شعره عابق بالتصوف، ومعمور بالعلم، ومشحون بالعشق والعاطفة وخطاب القلب. مضطرب بالهجر والجفـاء وغير متنعم بالوصل واللقاء. يرفع العشـق في أحاسيسه الإنسـانية إلى مدارج تصوفية راقية، حتى يَعُدّ بعض الباحثين ديوانه في "مجنون ليلى"، شـعرا صوفيا. إن المعاني وأسـلوب التعبير عنها، متلازمان في الأدب وفي الشعر خاصة. ومن قوة الشـعر، التعبير عن معنى رائق، بإفادةٍ موجزة وبليغة، في صور من الكلام مبتدعة ومركبة. و"فضولي" خير من جمع هذه الشؤون في شعره. بل يكاد أن يرفع المعاني إلى العلياء في كل بيت من أبيات شعره. فمِثلُه قليل وعزيز في التاريخ.

القصيدة المائية

هذه القصيدة عروضية و"نعتيـة". و"النعت" غرض من أغراض الشـعر التركي، يعني مدح النبي ﷺ. وقد ألزم الشاعر فيها نفسه بحـرف الراء رَوِيًّا، يتبعه كلمة "صُـوْ" (الماء). فالتزم بصعب لا يُلزمـه، ليصعد بقوة القصيدة. فإن تكرار كلمة الماء في قافية كل بيت، يحصر الشـاعر في معنى لا يرتبط بالمدح بطبعه. لقد اتخذ من "الماء" محورا وغرضاً للقصيدة. ثم سـخّر المشاعر والإيحاءات الحائمـة حول "المـاء"، ليهيّجها ويقودها إلى عشـق النبي ﷺ السلسـبيل الطاهر. فدل ذلك على روح التحدي عند "فضولي" في خوض أمر شديد يحجم عنه غيره. فتمكن في زج معان وطيدة "بالماء"، في صور بديعة بلسـان بليـغ، في غرض المديح. (تمعن في البيت الثالث والعشـرين ملياً، وجمعـه لعصي المعاني وجَمّها في بيت واحد). ولعل التزامه بقافية الماء بعد الراء جاء لمناسـبة الماء مع مقام النبي ﷺ من عدة أوجه. فالماء عزيز وشـهي، وقوام الحياة ومـدد الظمآن ورمز الطهارة ولهفـة الصادي... ولفظه التركي "صُوْ" يسـير اللفظ، نغمه يطرب الأذن. وتكرار صوته يقرب من هسهسـة الماء. وكأني بسامع القصيدة حاسا بالعطش وباحثا عن المـاء، لتكراره في آخر كل بيت، مع نعومة النغم في "صُوْ" بعد الراء المفتوحة. هذا، ماعدا قوة المعاني وبراعة التصوير وبلاغة اللسان. وقد وَضَعْتُ "الماء" في الترجمة في أول كل جملة، لضرورات اللسـان، ولاستحضار شيء ضئيل من روح الأصل.

إن معاني العشق والهجر والشوق بإيحاءاتها ورموزها الصوفية ظاهـرة في القصيدة. حتى لا تكاد تفطـن في الأبيات من مطلع القصيدة إلى البيت الخامس عشـر: "هل المقصود ذات النبي ﷺ بزخم صوفي المباني؟ أم إن الشـاعر ينحو منحى شـعراء العرب بافتتاح قصائدهم بالنسـيب... ليجاري "البردة" مثلاً؟" وأزعم أنـه اتخذ طريقه سـربا بين الأمرين بأسـلوب فريد في "النعت النبوي ﷺ". فإن نَقُل بأنه جارى الأقدمين من شـعراء العرب في أسلوبهم، مخالفا تقاليد شـعراء الترك، فقد فعل. وإن نقُل أنه لم يخرج عن أصول وأسـاليب الترك، فقد فعل. فإنّ دمعه الذارف شـوقٌ إلى الحبيب الذي يهفو إلى لقائه ووقوع بصره عليه، غير مبـالٍ حـتى إنْ كان وصاله كتلقي حدائد السـيوف وثواقب النبـال، ما دام في حَدّها وصلٌ بـه. فهو يجوب في هذه الأبيات الأولى من القصيدة في عالم من العشق العُلوي الوجداني المجرد. ولكن زخما من الاستعارات والإشـارات مستَخدَمةً في الأدب الصوفي، تومئ إلى النبي ﷺ في تلـك الأبيات الأولى... كالنبيه والسـكران، والزاهد والكوثر، والعندليب والوردة الحمراء، بل الـورد في الأدب الصوفي قرين رمزي للنـبي ﷺ. غير أن هذه الإيماءات لا تسـتلب من تلك الرموز والإشارات معاني العشق الوجداني الإنسـاني في معالجة الشاعر لهذه المعاني. ومما يشد من أزر "ثنائية الانتقال" بين النعت النبوي وبين العشـق الوجداني، أن اللسـان التركي لا يميز في قواعد خطابه بين المذكر والمؤنث.

فالواقـع أن "فضولي" انتهج طريقا اقتـرب فيه من "البردة" وأسلوب شعراء الجاهلية في الافتتاح، ولكنه لم يتطابق معهم ولم يغادر تقاليد الشـعر التركي أيضا. وإنه زاد على انتهاجه أسلوبا وسطا مبتدعا بين الأسلوبين، بأنه أعدّ مناخا عاطفيا خفيا وعشقا وجدانيا سـاميا، يتجهز به المرء في تولية وجهه نحو الحبيب محمد ﷺ والشـوق والحاجة واللهف إليه في البدايـات. ثم انتقل إلى الأصل المقصود الصريح ابتداء من البيت السادس عشر، في وحدة نفسية للقصيدة، وإعداد حسي متسق، وانسجام روحي ونفسي منصهـر في بودقة واحدة، قوامها الشـوق والتوق إلى المحبوب العزيز على الوصال، بأسلوب يوحد بين الحسي والعلوي.

فالتصاعد في وتيرة العشق والشوق، الثنائي الانتقال إلى الذهن

بين الحسي والنعتي، المحافظ على الوحدة النفسية، يستل السامع من واقع مادي أصم إلى فضاء الوجد والهيام العلوي الفنسيح، مهيئا النفس للارتقاء في المدارج إلى أجواء المشاعر النقية العلوية في العشق، صعودا إلى الأصل، وهو العشق المحمدي والشوق إلى النبي ﷺ في لهف كلهف صريع في هجير الصحارى إلى قطرة ماء... في أحوال شعورية ونفسية موحدة ومتماسكة ومنتظمة كحبات المسبحة بالخيط. إن معاني القصيدة كلها تحوم في أجواء وجدانية علوية واحدة من العشق والشوق والتوق إلى الوصال، وترفع الإنسان إلى مراتب عشق النبي ﷺ في حال محسوس بها في المشاعر القريبة، ولكن بالتحليق السامي في فضاء النقاء والصفاء والبهاء.

إن الشاعر يرقى بنا إلى ذرى المعاني للعشق الصوفي المجرد... ثم يمسك بزمام قيادنا نحو العشق النبوي ونحن في أرق أحواله الدافقة بالحيوية. عشق ملتهب في حنايا النفس، لكنه شهي ولذيذ تهفو إليه النفس وتتوق. وتسعد بلهيبه الذي يحرك ولا يحرق. وهو لشدة أواره النوري يستعصي أن يذوي أو يخمد بالماء الذي يغمر الكون والأفلاك كلها. بل النفس تأبى وتكره أن يخمد فيها هذا اللهيب أو يستكين. الماء هنا يفقد طبعه في إخماد حر اللهيب، فليس من شأنه في هذا الحال تسكين لوعة العشق. وله أن يكون دمعا ذارفا ونازفا في اللهف إلى الوصل، وطهرا يسري في النسغ ليزدهر ورداً لأجمل وجه، وريًّا يروي الصادي الظمآن الذي تشقق شفتيه رمضاء فيافي الحب، ورضابا للحبيب يروي الغليل، ونورا في جِبِلّة الطينة النبوية الطاهرة يزخ الحياة بالاقتداء بهديه. فهو السلسبيل الدفاق الذي تهفو إليه النفوس في رخائها ومَحْلها. وكذلك، هو مظهر معجزات الحبيب حين يطفئ نار الشر في الكون، ويتدفق زلالاً من بين أصابعه ﷺ ليغيث بالنضرة والحياة، ويتقلب بين يدي معجزاته الباهرات سماً للشر وعسلاً سرمدياً للخير.

ولئن كان الماء في القصيدة معينا دفاقاً، لذيذا وعزيزاً، ووسيلة ومحرّضا، يحض على المضي في سبل الشوق إلى الحبيب بلا فتور ولا ونى، فإنه يستحيل إلى عاشق بذاته، يسعى حثيثا في الدروب الموصلة إلى النبي المعشوق ﷺ، مجذوبا وغائباً عن الشعور إلا الحب، يضرب برأسه الأحجار في السفوح إذ يسيل، عساه أن يسعد بلقاء التراب الذي داسته قدم الحبيب، لا يكل ولا يمل وإن تشابكت الأعصر عليه. ولنقل إنه خاب في الوصول إلى تراب قدميه، فلا رجوع ولا عودة!.. يذوب إذن ويذوي، ويتفتت، سعيداً، لأنه يعاود الكرة بعد الأخرى، عمرا بعد عمر. فلا شكوى ولا ملل. بل ما أجدى السعي في هذه الدروب، ما دام الشوق إلى الحبيب أشهى حتى من الوصل نفسه؟!.

وهذه المعاني السامية والصور الزاخرة أسلوب بديع في النعت (المدح) المحمدي ﷺ. نسيح بها في هيام العشق النبوي الذي هو قوام الحياة الحقة في آفاقها الروحية المنسابة من الأزل الغابر إلى الأبد السرمد، كالماء... عشقٍ رقراقٍ وحيٍّ، كالماء. قصيدة "الماء"، شعر مفعم بأفياء معان للعشق رفرافة لا أشك في عجزي عن نقل ظلال البلاغة والعلو فيها، وعن استحضار رونق عواطفها وتلألؤ جواهرها، وقد آثرت ألا أبتعد عن معانيها القريبة حتى أضع بين يدي القارئ نصاً ملتزماً بالأصل. فلعل ذلك يجعل دراسة القصيدة أيسر للباحث. وعسى أن يكون الالتزام بأصل المعاني في الترجمة أجدى في تصور ظلالها الدائرة في محور الأدب الكلاسيكي وعلى إتمام المعنى في البيت الواحد، وفي الاستلهام بآثار أدبية تنطلق منها، وفي الحث على تراجم لها، شعرية أو نثرية أدبية، أبلغ وقعاً في النفس وأعظم إثارة للضمير والشعور من هذه الترجمة التي أحسب أنها الأولى إلى العربية..

ترجمة القصيدة المائية

١- الماء، دع الماء لا تهرقه دمعاً على نيران قلبي. الماء، كل الماء، يقصر عن هذا اللهيب.

٢- والماء، هل لونه هو الذي في القبة الدوارة، أم الذي في الأفلاك بحر من ماء عيني؟

٣- والماء يشقق الصخر شروخاً بمر الزمان... فهل عجبٌ إن تفتت قلبي بسيوف نظرك، نشواناً؟

٤- والماء يشربه الجريح متوجساً حذراً. وقلبي الجريح متوجس حذر، أن ينطق ببنت شفة عن سنان أهدابك.

(يشفق الشاعر أن ينطق بشيء عن أهداب عين الحبيب وإن كانت أسنتها الجارحة كالماء له، وهو الجريح. كخشية الجريح أن يشرب الماء حتى لا يزيد نزفه فيهلك).

٥- والماء إن سقى ألف جنة، ما تفتحت عن وردة كوجهك، فلا تَشْقَ يا زارع عبثاً، ودع الرياض غرضاً للسيول!

(يعني لا جدوى من سقاية الزرع وإن سالت سيولاً إن كان القصد مضاهاة الجمال في الزهور، وقد تفتحت أجمل الورود طراً).

٦- والماء الأسود حتى إن تَقَطّر على عين المحرر (فأعماها) لطول تأمله في خطوطك، كما يتقطر (الحبر) في القلم، فإن خطه الغباري الدقيق يستعصي أن يضاهي دقيق ملامحك.

(الماء الأسود الذي يذهب البصر. والخط الغباري هو نوع من أدق الخطوط كتابة).

٧- والماء ما ضاع سدى، حتى إن سقى الشوكَ رجاءَ الوردِ. فلست أبالي، إذن، مهما بلت جفوني لعارض من خاطرك.

(يعني أن البكاء على الحبيب ليس هباءً، وإن لم يبلغ الباكي المراد. كما أن الماء لا يذهب سدى ما دام الورد رجاء).

٨- والماء إن يرو العليل في ظلمة الليل، تكن صدقة. فتصدق ولا تحرم قلبي العليل في يوم الغم من سيف نظرك.

(يحسب الإنعام بالنظر، وإن كان حديدا كالسيف، ريًّا يروي ظمأه في بلوى الفراق، كما يرتوي العليل الظامئ الساهر بأوجاعه).

٩- والماء، ما ضرك -يا قلبي- أن تطلبه لي مرة في هذه الصحراء؟! فاستدع -يا قلب- في الهجر نباله، فيسكن شوقي إلى وصله!.

(هنا أيضاً، يستجلب نبال الحبيب في الهجر ويطلبها، كالماء في هجير الصحارى).

١٠- والماء يستسيغه النبيه، والخمر يستسيغه السكران. وإن الزهاد طلاب الكوثر، وأنا مشتاق إلى شفاهك!

١١- والماء ينساب في مسالكه إلى ربوع رياضك بلا كلل.. فأظنه عاشقاً لذاك السرو البهي القويم.

١٢- والماء هذا غريمي، فلأكنْ تراباً في طريقه مانعاً إياه عن تلك الربوع. (حتى أحوزها حصراً).

١٣- والماء، قدِّموه إلى (يد) الحبيب في جرة، تصنعوها من ترابي، إن مت يا أخلائي، فمرادي أن أقبل يديه، إذ لم أبلغ مرادي!

(حين يمس الحبيب الجرة).

١٤- والماء تراه مُقبّلاً أذيال ثوب السرو، واقعاً على أقدامه، متوسلاً به... لأن السرو زاه وشامخ، لتوسل القُمريّ به.

(هنا يسمو بالحبيب ويجعله عزيزا عن الوصول، مهما توسل القمري. ففي عزه لتوسل المحبين إليه، يقبّل الماء أذيال أثوابه ويسيل ذائبا تحت قدميه ويتواضع له).

١٥- والماء عساه أن ينقذ البلبل، إذ يختلط بمزاج غصن الورد... فإن الورد يهوى امتصاص دم البلبل في لونه.

(يعني أن الماء قد يخفف من غلواء الورد المستمد لونه من دم العندليب بالسريان في مزاج الغصن).

١٦- والماء في طهر طينتك نورٌ لأهل العالم، واقتداءٌ لطريق الأحمد المختار ﷺ.

١٧- والماء أغرق نار الشر بمعجزات سيد البشر وبحرِ دُرِّ الاصطفاء.

١٨- والماء تفجر من جلمود الصخر بمعجزة، ليخلّد نضارة روضة النبوة.

١٩- والماء أكفأ ألف ألف بيت نارٍ للكفار، إعجازه في العالم بحر محيط مديد.

٢٠- والماء تفجر من بين أصابعه ﷺ للأنصار يوم الشدة، في إعجاز من يسمع به يعض الأصابع عجباً.

٢١- والماء إن يذقه عدوٌ له، يكن سم أفعى، وإن يرتشف خليلٌ له سُمّ أفعى يكن ماء السرمدية وإكسير الحياة.

٢٢- والماء المرفوع إلى وجهه بكف الوضوء، كل قطرةٍ منثورةٍ منه ألفُ بحرٍ للرحمة، متلاطم الأمواج.

٢٣- والماء هيمانٌ، لا يفتأ يسيح في الأرض أعماراً متواصلةً، يرطم رأسه بالأحجار، حجراً حجراً، متلهفاً لتراب أقدامك.

(مع عموم المعنى، فقد ينصرف إلى نهرَي دجلة والفرات النابعين من فجاج الجبال في تركيا. ثم يسيحان حتى يلتقيان في شط العرب الذي يصب في الخليج. فكأنهما يريدان أن يبلغا تراب جزيرة العرب، موطيء قدم الرسول ﷺ، فلا ينالان المرام، مع إصرارهما في السيلان آماداً طويلة. ويعزز البيت الذي يليه هذا المعنى).

٢٤- والماء لن يرجع القهقري عن مأواك وإن فُتّتَ فَتاتاً. فمرامه أن يشع نوراً في كل ذرة بمن تراب مأواك.

٢٥- والماء يشربه السكران دواءً يعالج ذهول عقله. كذلك يداوي الخطاة آثامهم بذكر نعتك (مناقبك) ورداً لهم.

٢٦- والماء لهف الصادي، المتشقق شفتاه عطشاً. كذاك لهفي إليك يا حبيب الله، يا خير البشر.

٢٧- والماء الفياض من قطر نداك، يا بحر الكرامة، أوفت الثوابت والسيارات في ليلة معراجك.

٢٨- والماء إن ابتغاه للتجديد معمار مرقدك، ففيض الزلال يصب أبداً من معين نورك.

٢٩- والماء رجائي أن يُرش من غمام إحسانك، على نارٍ يلهبه خوفُ الجحيم حريقاً من الغم، في قلبي المشتعل.

٣٠- والماء في مطر نيسان يغدو لآلئ. كذلك صارت كلمات "فضولي" جواهر بيمن نعتك (مدحك).

٣١- والماء، أرجو أن يهبه عين وصلك لهذا الظمآن. فإن رجائي ألا أُحرم يوم الحشر. (استلهاما من أسطورة تقول بأن قطرة مطر الربيع تغدو لؤلؤة). ■

(*) كاتب وباحث تركي.

المصادر

(١) موسوعة الأدب التركي خارج تركيا، الأدب التركي في كركوك، للدكتور صبحي ساعتجي، ص ٣٠٢.

(٢) تاريخ الأدب العربي في العراق، لعباس العزاوي، ص: ٢٥٥.

(٣) د. مني منكي، بحث في ملتقى "فضولي" في عامه الخمسمائة المنعقدة بإسطنبول سنة ١٩٩٦م.

الشهيدة



رمضان جاقير *

لم تشرق الشمس بعدُ في أفق موسكو.. رفع رأسه عن فراشه وفي صدره ضيق لا يعرف مصدره. حاول أن يستجمع ذهنه ولكن.. نهض ببطء واتجه إلى حيث المغسلة يريد الوضوء.. ولما قُضيت الصلاة انصرف زملاؤه إلى غرفهم إلا هو، إذ كان دوره في الطبخ وإعداد الطعام. دخل المطبخ.. أمسك سكينا وجعل يقشر بها البطاطة، والضيقُ مازال يلازم نفسه.. وإذا بنواقيس كنيسة "سانت باسيل" تدق من بعيد.. فقد لمعت في رأسه صورة جامع السلطان أحمد.. ذكر الأذان الشجي الذي يعلو في سماء إسطنبول كل صباح.. ذكر صوت المؤذن "صاريجا حافظ"، الصوت الندي الذي يجعل الإنسان في قمة الخشوع.. مرت في رأسه الصور واحدة تلو الأخرى.. الناس يجيبون الدعوة الربانية ويدخلون المساجد أفواجا أفواجا.. فسرعان ما اختلط الضيق بشوق ملتهب.. تنهدات أخرجها من أعماق صدره.. آه أيها الوطن الحبيب!.. ما أجملك.. وما أجمل تلك اللحظات فيك!.. وفجأة تبادر إلى ذهنه صورة العجوز "ألِينا" التي ساعدها البارحة.. كم كانت سعيدة عندما فارقها، إذ كانت بادئ اللقاء حزينة مغمومة.. وكيف هي الآن يا ترى؟.. قرر أن يزورها ويطمئن عليها.. ترك تأملاته وأعد مائدة الفطور ثم أيقظ زملاءه.. وبعد أن ذهب الكل إلى جامعاتهم.. التفت إلى صديقه أحمد وقال برفق:

- ما رأيك أن تزور معي عجوزا روسية تعرّفت إليها البارحة؟..

...

المدينـــة تزدحم بالضوضـــاء والحركة.. أبواق الســـيارات والحافلات وأجراس الترام.. لا يكاد أحد يلتفت إلى الآخر، كل في عالمه الخاص به.. وامرأة عجوز بين هذه الحركة والضوضاء، تتوكأ على عصا بيد وتحمل أكيـــاس خضروات وفاكهة بيدها الأخرى.. تمشي بصعوبة وتترنح موشكة على السقوط، تلتفت بين الحين والآخر يمنة ويســـرة باحثة عن من يساعدها.. فألفت شـــابا جميل الهيئة يبدو على ســـيماه الإشـــراق والطيب، يجري صوبها.. ولما اقترب منها قالت:

– هلا ساعدتني يا بني..

ابتسم ابتسامة لطيفة حنونة وحمل عنها الأكياس على الفور.. أخذ يسير معها الهوينا على الرصيف.. وعندما وصلا إلى حديقة صغيرة طلبت منه أن يســـمح لها بالاســـتراحة.. ألقت بجسدها المكدود على مقعد من مقاعد الحديقة.. لمح ســـيماء الألم يرتسم على وجهها النحيل الشاحب، وعيناها المبللتان تعبران عن الحزن الدفين في صدرها.. بعد لحظات..

– ما اسمك يا بني، ومن أي بلد أنت؟

– اسمي مصطفى، من تركيا..

– من تركيا!.. وما الذي جاء بك إلى هنا؟!

– جئت لأكمل دراستي في إحدى جامعاتها..

– ألم تجد في غير هذه البلاد بغيتك؟

– القدر يا عمة، القدر..

وإذا به يبتدرها بالكلام:

– وأنت يا عمة؟..

كأن هذا السؤال أهاج مكنونات صدرها.. فقالت والأسى يقطر من نبراتها الحزينة:

– أنـــا يا ولـــدي.. اسمي "ألينا" أقاوم الحياة بكل قســـاوتها ومتاعبها كما ترى.

صمتت هنيهة ثم بدأت تقص له حكايتها المأســـاوية المرة.. كان ابنهـــا الكبير وزوجته يظلمانهـــا ويهددانها دائما بالطرد إن لم تقم بتنظيف المنـــزل وغســـل الملابس وجلي الأواني وتذهب إلى البازار لشراء الفاكهة والخضروات وما سواهما.. مس الحزن شغاف قلبه وشعر بألم شديد يعتصر فؤاده:

– هوني عليك يا عمة..

قالها مصطفى و لم يجد كلمة يردف بها.. أطرق رأسه، وأخذ يجول ببصره الأرض.. فرأى قطعة خبز ملقاة على الأرض، فمد يده ورفعهـــا ثم قبلها ووضعها جانبا.. كانـــت العجوز صامتة تراقب حركاته باســـتغراب و لم تستطع تفسير ما ترى!.. التفتت إليه وقالت وقد نسيت آلامها وهمومها:

– أيها الشاب.. واضح أنك إنسان طيب.. ولكن قل لي، ما الـــذي دفعك إلى رفع قطعة الخبز عن الأرض وتقبيلها ثم وضعها في مكان مناســـب!؟.. ثم ما الذي دفعك إلى مســـاعدة امرأة لم تكن تعرفها و لم تكن التقيت بها من قبل؟!.. وأبناؤنا يرمون ليس الخبز فحســـب، بل آباءهم وأمهاتهم في الشوارع بلا رحمة ولا شفقة!؟..

ابتسم مصطفى ابتسامة باهتة:

– المحافظـــة على النعمة أمر له قدســـيته في ثقافتنا يا عمة.. ومســـاعدة الآخرين واجب لابد أن يقوم به كل إنسان.. وقد حثنا ديننا الحنيف على ذلك..

– دينكم الحنيف! وما هو دينكم؟

– إنه الإســـلام يا عمة؟ الدين الذي يأمرنا بالحب والصفاء والرحمة والتسامح..

...

وراح يقـــص لها كل ما لديه من معلومات عن الإســـلام.. كلمات لم تسمع بها من قبل أبداً.. سألته وقد بدا الاهتمام على ملامحها:

– وماذا يقول دينكم عن كباركم وآبائكم وأمهاتكم؟..

– يقول ما قاله لنا معلّمنا ومربّينا..

– معلمكم ومربيكم!؟..

– نعم يا عمة، إنه محمد رســـول الله ﷺ خاتم النبيين، الذي بشر به موسى وعيســـى والأنبياء أجمعين.. يقول: "لولا شيوخ ركـــع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصـــب عليكم البلاء صبا". فأنذرنا وفي الوقت نفســـه حضّنا على الطاعة والاحترام لكبارنا وشيوخنا وعلى الحب والعطف والحنان على صغارنا..

كانت "ألينا" تصغي إليه بدقة متناهية.. وتحاول فهم ما يقوله من كلمات.. استطرد مصطفى:

– ثم ربنـــا ﷻ يأمرنـــا في كتابنـــا المقدس بـــبر الوالدين؛ أن لا نقـــول لهمـــا حـــتى "أف" ولا ننهرهمـــا، وأن نقول لهما قولا كريمـــا، ونخفض لهما جناح الذل مـــن الرحمة، وأن ندعو لهمـــا بـــ "رب ارحمهما كما ربيـــاني صغـــيرا".. تربّينا على

هـــذه الثقافة يا عمـــة.. ثقافة: "رضى الـــرب برضى الوالدين، ســـيما رضى الأمهات الـــتي جُعلت الجنة تحـــت أقدامهن"..

الجنة!؟.. كلمة أخرى لم تكن تدري معناها..

– وما هي الجنة؟..

– الجنة هي الرياض والبســـاتين والحدائق التي أعدها الله ﷻ لعباده المؤمنين.. فيها العنب والزيتون والرمان وكل ما تشـــتهيه الأنفـــس من الثمرات.. هي دار الخلود والكرامة، فيها من النعيم المقيم الأبدي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر..

امتلأت عينا مصطفى بالدموع فجأة إلا أنه استجمع نفسه.. تنهد بهدوء ثم تابع..

– نعم يا عمـــة، الجنة.. فكما أن بعد كل ظلام نورا، وبعد كل ليل صبحا، وكما أن كل ضيق وحزن يتبعهما رخاء وفرح، فكذلك الحياة الدنيا، فإنها ســـوف تنتهـــي وتزول يوما بمتاعبها وهمومها، وتنتهي إلى الراحة والرخاء والخلود..

خفق قلبها خفقات حلوة النغم وشعرت بلذة عارمة.. كأن الأيام التعســـة بكل ما فيها من يـــأس وعذاب تحولت إلى راحة واطمئنان..

– وكيف يمكنني أن أعتنق هذا الدين يا ولدي؟..

– يكفي أن تقولي "أشـــهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"..

راح مصطفى يكررها و"ألينا" تحرك شفتيها بعده، طلبت منه أن يكتبها على ورقة بالأحرف الروســـية حتى تحفظها.. ابتلعت ريقها بدأت تحاول قراءتها:

– أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله..

شـــعرت بنور الإيمان ولذته في قرارة نفســـها فجأة، وتهلل وجهها فرحـــا.. تدحرجت الدموع البـــاردة على خديها دون إرادتهـــا.. هاهي السـعادة التي كانت تبحـــث عنها ليل نهار.. اعتصمت بالصمت لفتـــرة طويلة.. ثم نهضت وحملت الأكياس بنشاط وهمت بالذهاب..

– لا أعرف كيف أعبر لك عن شكري وامتناني يا ولدي.. فأنا مدينة لـــك.. أعدتَ إليّ حلاوة الحياة الـــتي افتقدتها زمانا طويلا.. أشـــعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي.. أنتَ قمتَ بالواجب وساعدتني بما فيه الكفاية شكرا جزيلا.. والآن اذهب ولا تتأخر عن جامعتك.. بيتي خلف هذا المبنى، لا بد أن تزورني.. لا تنساني أرجوك.. إلى اللقاء..

...

هاهو ذا يســـير وأحمد في صمت على نفس الطريق التي سار عليها البارحة.. ولكنه بشـعور غريب مختلط هذه المرة، وما زال الضيق الذي انتابه في الصباح يلازمه خطوة خطوة. أراد أن يشغل أفكاره بشيء يبدد به هذا الضيق فدخل دكان أزهار واشترى باقة ورد ليقدمها إلى عمتـــه "ألينا".. وقف مع صاحبه أمام منـــزلها وراح يجول بنظراته في جنبات المبنى.. عاودته اللحظات القصيرة الـــتي أمضاها مع العجوز "ألينا".. اللحظات التي كانت أغلى ما في الدنيا وما عليها.. تذكر حديث أسوته ﷺ "لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها"..

...

وضع مصطفى باقة الورد على القبر وراح يقرأ سورة الفاتحة فاتحا يديه إلى الســـماء، وفي جانبه صاحبه أحمد و"أوليك" حفيد العجوز "ألينا".. وبينما هو يدعو شرع "أوليك" يحكي عن حادث السيارة الذي أدى إلى وفاة جدته "ألينا" والدموع تنساب من عينيه:

– قيـــل لي، إنها عندما كانت تقطع الشـــارع حاملة أكياس الفاكهة والخضروات، ضربتها ســـيارة هوجـــاء وقذفت بها إلى الجانب الآخر من الشـــارع.. فسارع مَن سارع لطلب النجدة، وأُخذت إلى المستشـــفى.. كنت إلى جانبها طوال الليل، كانت تـــردد اسمك يا مصطفى دائماً وتكرر كلمات لم أكن قد سمعتها من قبل و لم أدرك معناها.. وقبل شروق الشمس..

تعقدت الكلمات في فم "أوليـــك" وأجهش بالبكاء.. تنهد مصطفى ثم قال في صوت خافت لا يكاد يُسمع متذكراً الكلمات التي قالتها "ألينا" عند فراقه: "أشعر وكأني ولدت من جديد يا ولدي"..

– رحمـــك الله يا عمة "ألينا" وأســـكنك جنانه.. حقا إنك وُلدتِ من جديد، فطوبى لك!..

فلم يستطع يتمالك نفســـه أكثر وترك دموعه تنفجر بغزارة بللـــت تربة القـــبر.. وإذا بـــ"أوليك" يمد إليـــه ورقة ويقول..

–وجدتُ هذه الورقة بيدها، قابضة عليها بشدة..

إنها الورقة التي كتبها لها: "أشـــهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله".. ■

(*) كاتب وأديب تركي، الترجمة عن التركية: نور الدين صواش. وهي قصة حقيقية وقعت في روسيا.



فقه المجتمع
نحو استئناف التأسيس

أ.د. أحمد عبادي *

فقه المجتمع في أمتنا لم ينل من الحظ تنظيرا وبسطا ما ناله فقه الأفراد، فتراثنا الفقهي يشهد بأن الثاني كان الاهتمام به ضافيا، بخلاف الأول، مما جعل البعد التنظيمي للمشاركة في هموم المجتمع وتحمّل مسؤولياته يكون ضامرا، الأمر الذي ترك هذه الممارسة لأريحية الأفراد دون أن يضبطها ضابط من تنظيم وتقنين يجعلها أكثر فاعلية واستمرارية.. وهذا أمر وراءه أسباب متعددة، منها:

١- أن المجتمع المسلم الأول كان بسيطا في تركيبته؛ فقد كان الناس قبل الإسلام ينتظمون في أسـرهم وعشـائرهم وقبائلهم، وهي مؤسسات تقوم على أعراف قديمة مسـتقرة ومألوفة تُرْضَع مع حليب الأمهات وتُتَنَفّس مع الهواء، فلا يستوي الفرد إلا وقد تعلمها مع المشـي والكلام، وانضبط لها كما ينضبط لقوانين الجاذبية والنمو، بل أكثر من هذا، فالذين انفلتوا من هذا النظام معلومون معروفون باسم "الصعاليك"، ولا يزال بعض أعيانهم معروفين عند الأمة إلى الآن.

من هنا، فإن الضبط المباشر الذي جاء في التشريع الإسلامي لهذه المؤسسات كان كافيا، ولم يتم بالتالي تلقي الإشارات الكثيرة الموجودة في الكتاب والسنة، والتي تؤصل لبلورة فقه المجتمع والدولة من مختلف التوجيهات، كالأمر بالشـورى، والحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكافل، والانتصار من بعد الإصابة بالبغي...إلخ.

وهي توجيهات تحتاج إلى هيئات وقوانين من أجل تنـزيلها على واقع الناس، والحفاظ عليها وتنميتها، مما يحتاج إلى جهد مستأنف لاستدراك النقص الذي فيه.

٢- الاعتماد على البعد العقيدي في النفوس أزهد المسلمين في ضبط المؤسسات وبلورة فقه خاص لها يُستنبط من الأحكام التي تؤطرها، فاحتلت الثقة مكانا أكبر مما ينبغي. فلما ضعف الوازع العقيدي وكثرت الكوارث طفت الأزمة على السطح وبحدة كبيرة، مما جعل المسلمين يقبلون في العصر الحديث كثيرا من القوانين والتنظيمات الدخيلة عليهم، لسد الفراغ الذي تركه قصورهم وقعودهم عن الاجتهاد، لبلورة فقه المجتمع ومختلف مؤسساته.

٣- شهد عهد الخلافة الراشدة تطورا في المجتمع الإسلامي وفي فقهها، فكتاب عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما في القضاء -مثلا- شاهد على ذلك، إذ فيه توجيهات إلى الفهم والاستشارة، كما فيه دعم وتأصيل للمؤسسة القضائية،[1] التي كانت مؤسسة مجتمعية محضة مستقلة عن الدولة قائمة بذاتها، وماتحَة مباشرة من المرجعية العليا للأمة (أقصد القرآن والسنة) مضافا إلى ذلك اجتهاد القضاة وفهمهم، وهو ما ألحّ عليه عمر ﷺ في كتابه إلى أبي موسى ﷺ سالف الذكر.

وقد شهد عصر عمر ﷺ أيضا اقتباس نظام الدواوين، كما شهد ضبط مؤسسة الجند وتنظيمها، فقد بدأ عمر فعلا ببلورة فقه خاص بها، من ذلك على سبيل المثال: جعله المدة القصوى التي يبقاها الجندي بعيدا عن أهله هي أربعة أشهر، بناء على سؤال سأله ابنتَه أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها عن صبر المرأة على زوجها، حيث أجابته بأن المرأة لا تصبر على زوجها أكثر من أربعة أشهر.

الانحراف التاريخي

غير أن انحرافا كبيرا في هذا المسار يسجل بعد تقلص ظلّ الرشد عن الدولة الإسلامية، فقد طغى على الانشغال بالمجتمع وقضاياه انشغالُ المسؤولين بإخماد الثورات، والتمكينِ للدولة القائمة على أنقاض دولة، وتتبع بقايا الدولة المسقطة وجذورها، وبناء الهيبة، وجمع الخراج، والسقوط في وِهاد مشاريع وهمية منحرفة، ثم انشغال جهاز الدولة من الداخل بالمؤامرات، والمؤامرات المضادة، كمؤامرة البرامكة، والبويهيين، والانشغال بفتنة قيام الدولة الفاطمية في مصر... وحين تمزقت الدولة العباسية وترهلت الدولة الفاطمية، جاء دور المماليك، وهلم جرا.

الشأن نفسه في المغرب، حيث كان الأمويون في الأندلس، إلى حين عهد المؤامرات، فالمؤامرات المضادة بين ملوك الطوائف، ثم انطفاء الجذوة، والدول المتعاقبة في المغرب الأقصى وإفريقيا بشكل عام.

وباختصار، لم يكن همُّ الاشتغال بالمجتمع هو الهم المركزي، وإنما الاشتغال بالدولة أو لنقلْ: "بالذات"، وأُسْلِمَ المجتمع إلى نفسه، بخلاف الشأن حين كان الرشد معانقا للدولة، فقد كان الاهتمام "بمجال التشريع، وتأصيل الشريعة الإسلامية، وتنظيم الشورى، وإعلان قراراتها، والتخطيط، والإحصاء، والرقابة، ووضع السياسات التي تراقب معاملات المجتمع وتوجه المناشط الاقتصادية فيه"[2].

ليس هذا يعني أن الدولة الإسلامية كان تاريخها مجردا من الوضاءة والإشراق -وإن ركزنا ههنا على جانب له صلة بموضوعنا- وإلا فلا يخفى عطاء المسلمين خلال التاريخ، وهذا أمر لا ينكر، وكان يمكن أن يكون أحسن لولا ما ذكرنا وأمور أخرى لا يتسع المقام لذكرها.

العزوف عن النهج الشوري

وخارج فترات الرشد كانت جهود الفقهاء منصبة على تطوير فقه الأفراد وتفصيله، لأن الدولة انتهجت بعد الفترة الراشدة نهجا غير شوريّ، محيّدا لعموم المسلمين عن تحمل مسؤولياتهم في النصح والتسيير... وإن التسيير لعبء ينوء بالعصبة أولي القوة... فبرز أنموذج للمواطن الصالح، بعيد كل البُعد عن الأنموذج القرآني، فأَصلَحُ الناسِ أنآهم عن تحمل المسؤوليات وأبعدُهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبكلمة مختصرة: صار أصلح الناس أكثرَهم انحسارا وإقبالا على خويصّة نفسه، وهذا تجانف صارخ عن قيم الإسلام الذي جعَل هذه الأمةَ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) لأنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله... ورسول الله ﷺ يقول في الحديث الصحيح: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان" (رواه مسلم).



فلما ساد هذا الوضع، بعد مقاومة أطيح فيها برؤوسٍ خيِّرةٍ من المؤمنين، كالحسين بن علي رضي الله عنهما، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وسعيد بن جبير رحمه الله، وغيرهم.. وأُسلم المسؤولون لأنفسهم ولغرائزهم وأهوائهم... أسلموا لسكرة السلطة، فتسلطوا.

ونشأ إذن فقه المجتمع ومؤسساته بعيدا عن المجتمع، وانطلاقا من الرأي الواحد، والفهم الواحد، فُقه الدولة، وفُهم الدولة، فلم يُبْرَد ويشحذ بالمناظرات والحوارات والرسائل، شأن فقه الأفراد (فقه العبادات بشكل عام)؛ إذ لم يكن همُّ التنظير للحياة في المجتمع، والممارساتِ -بشتى أنواعها- التي تجري فيه، وهمُّ استنباط الأحكام الخاصة بذلك همَّ المجتمع وفقهائِه، بل بقي همَّ الدولة وفقهائها فقط.

وهذا سبب هام من أسباب فقر هذا الفقه وضموره، وقلة مصداقية ما هو موجود منه، مما ينبغي أن يتجاوز ويستدرك، وإنني لأميل إلى الاعتقاد بأن هذا التجاوز وهذا الاستدراك لا يمكن إطلاقا أن يتم خارج المعترك السياسي، وخارج إطار تحمل أماناتٍ ومسؤوليات حقيقية -قلَّت أم كثُرت- من مسؤوليات الأمة، من قِبَل مؤمنين بهذا الدين، معتقدين بصلاحية شريعته لتأطير حياة الناس في كل مصر وعصر، حتى تكون المواكبة لمستأنفات الأحوال بكل الكسب الفقهي اللازم موازنة وتسديدا وتقريبا وتغليبا. وإلا فلن تعدو الاجتهادات أن تكون نظرية عُلوية مطلقة، متجانفة عن الإشكالات الحقيقية الموجودة في المجتمعات المشخصة والعينية التي تحتاج إلى اجتهادات خاصة بها... وهي اجتهادات لا غرو سوف تكون أيضا عقب سَيْرٍ في الأرض، ونظر في تجارب الآخرين واستفادة منها.

والله المستعان. ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(1) انظر، أعلام الموقعين لابن القيم، ١/١٦٤.

(2) د. حسن الترابي، مجلة قراءات سياسية، العدد الثالث، صيف ١٩٩٢، ص: ٧.

مفتاح النور

صدأُ السنين يفتت حياتنا،
وعَفَنُ الظلام يسربل أرواحنا،
وعلى قلوبنا أقفال،
ولكن مفتاح النور يدور ويدور،
وفي الأقفال يصول ويجول،
بالحب نفتح الأبواب،
ونحطّم الأقفال...
فإذا العزائم تتواثب،
والإرادات تتسابق،
فما من قفل على مفتاح الحب يستعصي،
وما من ظلام على نور الصباح يستعلي..
* * *







من تراثنا الثقافي المشترك

خيال الظل

أ.د. الصفصافي أحمد القطوري *

خيال الظل أو "قَرَه كُوزْ" مسـرح ظلي ضارب في أعماق التاريخ. يمثّل بأشـكال منعكسة على ستارة بيضاء مشدودة أمام ضوء مثبت خلف هذه الستارة. ومعظم الشخوص البشرية أو الحيوانية هنا مصنوعة من جلد الحيوان وخاصة الجمل، حيث تنعكس على السـتارة تلك الأشكال البديعة بألوانها الساحرة.

ولاعب "قَرَه كُوزْ" أو الخيالي، هو الذي يحرك هذه الشخوص ويجعلها تتحادث وتتصارع وتقوم بحركة متمايلة وملتوية معكوسة مفصلية، حيث إن هذه الحركات توقظ في نفس المشاهد أحاسيس ورغبات دقيقة وخيالات جذابة.

وأثبتت الدراسات أن مسرح خيال الظل قد تطرق إلى جميع التراجيديات والكوميديات في حياتنا. وبنظرة أكثر عمقا، نجد أن مسرح "العرائس" و"قَرَه كُوزْ"، يرمز كل منهما إلى عنصر الخيال الذي تتسم به حياة الإنسان، وأن خيال الظل يؤكد هذا التشابه. الواهم بينه وبين جوانب حياتنا المترعة بأطياف الخيال.

منشأ خيال الظل

هناك وجهتا نظر حول منشـأ خيال الظل؛ الأولى: أن هذا الفن ظهر في آسـيا وانتقل منها إلى الغـرب. والأخرى: أنه ظهر في

الغرب ومنه انتقل إلى الشـــرق وآســيا. ولوجهـــة النظر الأولى ثلاثـــة آراء: الأول: أن هذا الفن ظهر في جاوه، وأن خيال الظل الجاوي ومصطلحاته موجودة في اللغة الجاوية القديمة. وكما أن مســـرحيات هذا النوع ممتدة إلى ألف سنة قبل الميلاد، فإنها تُعد نوعا مســـتقلا بذاته. والرأي الثاني: يُحـــدد مكان ظهور خيال الظـــل "قَرَه كُوزْ" في الهند بدلا مـــن "جاوه"، وأن اسمه في اللغة السنسكريتية "جاينا طاقه" ومدلولها هو نفس مدلول خيال الظل، ولكن هذا ليس بالأمر المقطوع به.

وهناك رأي ثالث يقول بـــأن خيال الظل يرجع إلى الصين. ويستند هذا الرأي إلى أسطورة صينية تعود إلى سنة (١٢١ ق.م)، حيث تحكي أن "الإمبراطور "ويو" قد ســيطر عليه حزن عميق إثر وفاة زوجته التي كان يحبهـــا حبا ملك عليه كل جنانه، و لم تفلح كل المســـاعي التي بُذلت لتسليته والترفيه عنه. وقد حاول فنان صيني أن يرفه عن الإمبراطور باختياره لسيدة شديدة الشبه بالإمبراطـــورة المتوفاة، وجعلها تمر أمام ســـتارة بيضاء على بُعد مناسب من الإمبراطور، وادعى له أن هذا هو طيف الإمبراطورة الحبيبة. وقد نجح بذلك في الترفيه عن الإمبراطور بهذا الشكل".

أما وجهة النظر الأخرى فهي تُعارض خروج فن "قَرَه كُوزْ" من "جاوه" أو الهند أو الصين أو آســـيا عامـــة، مدعية أن هذا الفن قد ظهر أولاً في الغرب وانتشـــر منه إلى الشـــرق، وتزعّم الباحثون الألمان هذا الرأي. وإن كنت أوضح، إن هذا الرأي قد خلـــط بين خيال الظل وبين فن العرائس الذي ظهر عند اليونان، وتكلم عنه أفلاطون وأرسطو ومعظم فلاسفة اليونان. وذلك لأن كل النماذج التي يضربها أصحاب هذا الرأي تنتمي إلى مســـرح العرائس المحرك بالخيوط، وليس إلى مسرح خيال الظل المعكوس على الستارة البيضاء. و لم يشر أصحاب هذا الرأي إلى أي دليل قاطع أو نص متوارث يدل على ظهور هذا الفن عند الغرب.

ولما كان التراث الشعبي لكل من الهند والصين وجاوه يحتوي على العديد المتنوع من المسرحيات الظلية التي وصلت إلى أيدي الباحثين، فإن الرأي القائل بأسبقية آسيا والشرق لهذا الفن يكون أكثر مصداقية وإقناعا.

الأسطورة التركية

يروى أن الســـلطان العثماني "أورخان غازي" الذي تولى العرش ســـنة (١٣٢٦م)، أمر ببناء جامـــع في مدينة بورصة. وكان بين العمال الذين يعملون في البناء عاملان يُدعى الأول منهما: "قَرَه كُوزْ" والثاني "حاجي واد"، وكلاهما يملك من خفة الدم والمرح والفكاهة ما يجعلهما يقومان بحركات طريفة وفكاهات هزلية تجعل العمال يلتفون حولهما لمشـــاهدة ما يقومان به من ألعاب مُسَلّية تاركين العمل، وعندما سأل السلطان عن سبب التأخر في إنجاز العمل، أخبروه عن "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد"، فأمر أن يقوما بما يقومان به أمامه، فســـعد بما رأى، حيث إنهما مثّلا أمامه "محاورة الحمـــام" ولكنه أمرهما أن يعدلا عن هـــذا حتى لا يتعطل البناء.

وكان هناك في مدينة "بورصة" رجل يدعى "الكشتري" أراد أن يُسري عن الســـلطان ويذهب عنه الحزن. فعكس خيال كل من "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد" على ستارة بيضاء، ونجح في تسلية الســـلطان. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان "الكشتري" أول رائد لفن "قَرَه كُوزْ" في بلاد الأناضول.

ومَدْفَـــن "قَرَه كُوزْ" موجـــود في مدينة "بورصة"، ولكن لم يستدل أي باحث على مدفن "حاجي واد" في المدينة حتى الآن.

وهكذا قام أرباب هذا الفن بتشـــخيص هاتين الشخصيتين بمحاوراتهم الشيقة بهذه اللعبة الظلّية.

وعلى كل حال، فإن التعبيرات المستخدمة في تركيا -كغيرها من دول العالم الإسلامي- للتعبير عن هذا الفن، فهي "قَرَه كُوزْ" و"خيال الظل" و"ظل الخيال" و"طيف الخيال" وما شابه ذلك.

وهناك دليل قاطع على أن مسرح خيال الظل كان معروفا في مصر في العصر المملوكي، وأنه وفد من مصر إلى بلاد الأناضول بعد الفتح العثماني لمصر والشـــام. فنرى مســـرحيات ابن دانيال (١٢٤٨-١٣١١م) سارت على درب سابق لعروض ظلية قبلها، وهو ما يتضح من مستواها الفني والأدبي الناضج نسبيا.

مسرح ابن دانيال

بين أيدينا ثلاث مســـرحيات لـــ"محمد بن دانيال بن يوســـف" ما بين شـــعرية ونثرية وزجلية. وهي "طيف الخيال" و"عجيب وغريب" و"المتيم".

وتبدأ "طيف الخيال" بحمد الله والصلاة على النبي ﷺ والدعاء للســـلطان، ثم يقدم الراوي بمقدمة تُشير إلى حملة السلطان على الشر وتخريبه أماكن الفسق والفساد.

أما أبطال المســـرحية الخيالية فهم: الأمير وصال، أحد أمراء الجند، ومجموعة من الشـــخصيات المعروفة في المجتمع المصري المملوكـــي. ويدور الموضوع حول رغبـــة وصال في الزواج من

امرأة ذات حسب وجمال. ولكن الخاطبة "أم رشيد" تُوقعه في عروس شديدة القبح، فيغضب ويتوعد، ولكنه يقتنع في النهاية بأن الله أوقعه في شَرَك بما قدم من أفعال الشر. فأعلن التوبة وغسل معاصيه بالحج لبيت الله الحرام وزيارة مسجد الرسول ﷺ.

والمسرحية الثانية "عجيب وغريب" فهي استعراض لأنماط ونماذج معينة من واقع الحياة الشعبية، في الشارع والسوق حيث مصدر المعرفة والتكسب والتحايل على الرزق بشتى الحيل؛ ففيها النصب والاحتيال والسلب والمراوغة والمساومة. فهي بهذا معرض لكثير من مظاهر الحياة اليومية للمجتمع وعيوبه.

أما "المتيم" فتدور قصتها حول الحب والهيام وحيل المحبين في عصر الكاتب، حيث يتعقب فيها واحداً منهم هو "المتيّم" ويعرض محاولاته وصنوف حيله لبلوغ مأربه من محبوبته. وتكاد تكون هذه البابية مبنية على حلقات المصارعة بين القطط والكلاب والديكة والخرفان والثيران الخاصة برقباء "المتيّم" حيث يتغلب عليهم جميعا.

والتراث العربي يسجل لنا أن الشاعر العربي عمر بن الفارض تكلم بشكل مسهب عن خيال الظل، وله بابية شعرية نطالع فيها مرور الجمال وعبور السفن للبحار، وجيوشا تخوض المعارك في البر والبحر، ومرور الجُند، سواء أكانوا مشاة أو خيالة. وكذا الصياد وهو يلقي شباكه، والوحوش وهي تُغرق السفن في البحار، والسباع وهي تفترس صيدها من الحيوانات الأخرى.

ففي المسرحية الأولى تمثل شخصية "وصال" الخاطئ التقليدي في العمل الدرامي الكلاسيكي الذي لابد أن تنتهي القصة بأن يلقى جزاء ما اقترف، ويرسم المؤلف صورة الفساد الذي يعيشه وصال بمجرد ظهوره، ويمدحه بما يُشبه الذم، وتدور مشاهد البابة وأحداثها بين كلام الراوية "طيف الخيال" وتسلسل المشاهد وتتابعها مع البطل ومن يلقاهم ويحادثهم حتى خاتمتها. أما عجيب وغريب، فكلاهما نقيض للآخر؛ فغريب ماكر وفقير بينما عجيب ممن يشكر الله على خلقه ويدعو كل الشحاذين والمتسولين إلى الجد والنشاط ليحصلوا على المال عدّا ونقدا.

وبقية الشخوص في هذه البابة والبابة الثالثة كلها أنماط مستقاة من البيئة الشعبية المصرية، حيث نرى بينهم الحاوي والجراح المتطبب وقارئ الطالع والساحر والداعر، ونرى مدربي الحيوانات كالقردة والقطط والسباع والكلاب.

المضامين الاجتماعية

والجدير بالذكر أن كل هذه الأنماط البشرية والحيوانية نصادفها في مسرحيات "قَرَه كُوزْ" التي عرضت في مدينة إسطنبول خلال القرن السادس عشر الميلادي. نرى دائما في المسرحية أن "قَرَه كُوزْ" يملك شخصية بسيطة طاهرة الروح، تستخرج الحكم من الأحداث بشكل مضحك، ذكي بالرغم من أميته البادية. ليس عالما ولكنه صاحب معرفة ونفاذ بصيرة، يسعد بالخير والجمال وبكل ما هو حسن وطيب وجميل، سواء أكان ذلك في اللغة أو في الأخلاق أو السلوك. ويسخر دائما من كل تزييف أو تقليد ممسوخ لهذا الخير والجمال، كما يسخر من كل دخيل على مجتمعه.

أما "حاجي واد" فهو على النقيض تماما، يملك شخصية مصطنعة في المجتمع، تلقى قسطا من التعليم، يتشدق بمصطلحات علمية وفقهية دون أن يعي مدلولها، يسعد بكل ما هو عجيب أو غريب أو أجنبي، سواء في اللغة أو الفكر أو الموسيقى. يملك شخصية مادية نفعية صرفة، ومن هنا كان يتولد الصراع الساخن بينه وبين "قَرَه كُوزْ".

كما أديت بمهارة فائقة على ستارة خيال الظل التركي، شخصيات الأقوام التي امتزجت ببعضها البعض وكونت المجتمع العثماني، كالترك والفرس والعرب والروم والأرناؤوط واللاظ والأكراد والشركس واليهود بكل السمات المميزة لكل قوم من هذه الأقوام.

كما أن شخصيات الترياقي والحشاش والمتطفل والمتسكع والمتلهفة على الزواج والخاطبة والراقصة والأطرش والمتلعثم والأبله والسكير والمجذوب كلها من الأنماط الشعبية التي عرفت طريقها إلى ستارة المسرحيات الظلية والتي تُعد مع ما يحيط بها من مناظر ومظاهر متعددة وثيقةً تاريخية لدراسة الناحية الاجتماعية للمجتمع التركي في تلك الحقبة.

وقد استمد خيال الظل أيضاً موضوعات من الأدب الكلاسيكي سواء العربي أو الفارسي أو التركي كـ"ليلى ومجنون"، "قيس وليلى"، و"خُسْرَوْ وشِيرِين"، و"فرحات وشِيرِين"، و"يوسف وزليخا"، ولكن لابد من الإشارة هنا إلى أنها قد غيرت بما يتلاءم مع روح الفن الفكاهي الساخر.

اللغة

وكانت تركية "قَرَه كُوزْ" كعربية "طيف الخيال" و"عجيب" المصري، لغة صافية شعبية أصيلة خالية من أي دخيل، منغمة بعيدة عن كل تعقيد. هي تركية أهالي إسطنبول، كما كانت لهجة القاهرة هي السائدة في بابات خيال الظل المصري، تتكرر

فيها من حين لآخر الأمثلةُ الشـعبية والحكـم والأقوال المأثورة والمناظرات والتوريَة المحببة إلى نفوس الشعب بكل طبقاته.

والموضوعات التي تناولها مسـرح "قَرَه كُـوزْ" التركي عن طريق كتاب "قَـرَه كُوزْ" التي جمعها "خيـالي كُوجُوكْ علي" مـن الواضح أنها تناقلت من الأجـداد إلى الآباء فالأبناء. وعلى الرغـم من أنه من الصعوبة بمـكان أن نعثر على انطباع صادق ومحدد لمحتويات بذاتها لأي مسرحية قره كوزية، إلا أننا استنادا إلى الكتاب السـابق وكتاب "دراسـات في المسـرح والسينما عند العرب" للمستشـرق "لنداو" نسـتطيع أن نقرر أن أحب الموضوعات التي تطرق إليها هذا الفن الشـعبي كانت كما يلي:

– "قَرَه كُـوزْ" جاهل و"حاجي واد" يحاول أن يعلمه كيفية التصرف في المواقف الصعبة.

– "قَـرَه كُوزْ" يبحث عن عمل وفي صحبته صديقه "حاجي واد" الذي يغمره بنصائحه وإرشـاداته وهو يظهر افتقاده القدرة على العمل.

– "قَرَه كُوزْ" يحاول أن يأتي بالممنوع من الأشياء بدافع حب الاستطلاع، أو شـوقا لرغبات معينة، أو بسبب طمعه في شيء مـا.. وفي تلك المواقف لا ينقذه غير رفيقه "حاجي واد"، وذلك بعـد أن يحصل منه على وعد بأن يكف عن صفعه، وأن يقدم في الليلة القادمة عرضا أكثر بهجة.

– "حاجـي واد" يـدرب "قَرَه كُوزْ" علـى بعض الحِرَف والألعاب التي يسيء فهمها.

– "قَرَه كُوزْ" يأتي من الأفعال التي تعرِّضه إلى بعض المتاعب، ثم يجد نفسه في موقف حرج.

هذا بالإضافة إلى الموضوعات الكلاسيكية المستمدة من الأدب العربي والفارسي والمترجمات عن الآداب الأخرى، كقصص ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة والبخلاء وما شابه ذلك من الطرائف.

فصول المسرحية

وبدراسـة التراث الذي وصل إلى أيدينا، نجد أن المسرحية الظلية في شتى منابعها قد انقسمت إلى أربعة فصول:

١–المقدمة: وكانت عبارة عن افتتاح ثم الغناء ثم ابتهال إلى الله ﷻ ودعاء للحاكم وشكر للمتفرجين وتمنيات لهم بالمتعة والعبرة.. وكل هذا عن طريق الراوي الـذي يقوم بدوره "حاجي واد".

٢–المحاورة: وهي في الغالب الأعم تـدور بين "قَرَه كُوزْ" و"حاجـي واد"، وتعتمد علـى اللفظ اعتمـادا كليًا، وهدفها تسليط الأضواء على الفوارق الواضحة بين شخصيتي "قَرَه كُوزْ" و"حاجي واد" التي تمثل كل منهما نمطا معينا من البشر.

٣–الفاصلة: وهي المسـرحية نفسـها، وتشتمل على كل الأحداث التي تتكون منها البابة وتشـترك فيها بقية الشخصيات والشخوص الموجودة.

٤–الخاتمة: وفيها إذا كان "حاجي واد" هو الذي قدم المقدمة فإن "قَرَه كُوزْ" هو الذي يقدم الخاتمة؛ وفيها يتمنى للمشـاهد أن يصيبه ما أصاب البطل من خـير، ويجنبه ما وقع فيه من مآزق، ويعتذر عن أي قصور بدر منهما في هذا العرض متمنيا تلافيه في العرض القادم الذي يعلن عنه.

التأثير والتأثر

هكذا يتضح مدى التأثير المتبادل بين منابع هذا الفن الشعبي الشرقي الأصيل، الذي كان للموسيقى الشرقية الأصلية دور بارز أيضا فيه.

وكان البطل الرئيسـي في بابات هذا الفن يطرب للموسيقى الشرقية الأصيلة مفصلا إياها عن موسيقى اللاظ المتأثرة بالموسيقى البيزنطية أو موسيقى الروم المتأثرة بالموسيقى اليونانية القديمة.

وكما هو معروف فإن الترك منذ أن كانوا في أواسط آسيا، قـد واءموا بين حركاتهم والموسـيقى ودمجوها في كل أعمالهم، وإنهـم منذ القرنين الثاني عشـر والثالث عشـر الميلاديين، قد وحدوا بين الموسـيقى والعادات الشعبية. كما أن شعراء التكايا والمعسكرات في الأناضول وأواسط آسيا، هم أول من أنشد شعرا دينيا بمصاحبة الدف والناي. ومن هنا كان توظيف الموسيقى في مسرحيات خيال الظل عملا مهما وتقليدا متوارثا.

وفي بداية هذا القرن قامت تجربة مثيرة في مدينة إسـطنبول، تمثلت في تقديم مسـرحيات ظلية حية. ففـي عام (١٩١٠م)، قدمت على "مسرح الشـرق" الواقع في حي "شَهْزَادَه باشي"، و"مسـرح أوديون" في حي "بَيْ أُوغْلـو" أوبريتات ظلية حية بممثلين حقيقيين. كما أن الممثل الكوميدي المشـهور "ناشـد أُوزْجان" قد لعب أدوارا ظلية في مسرحيات من مسرحيات "قَرَه كُوزْ" وحمَّلها العديد من المضامين الاجتماعية والعرفانية تتفق مع متطلبات العصر. ■

(*) جامعة عين شمس / مصر.

مَن فاز بالمولى كُفي

أنس إبراهيم الدغيم *

فـي قطـرة الطّلِّ وفي … تـرقرق المـاء الصّفي
رأيـتُ ربّـي حاضراً … فـي كـلّ بادٍ أو خفي
في صفو رقـراقِ النّهَرْ … في ميلِ أغصان الشّجرْ
وفـي تـسابيح النّدى … وفـي تـراتيل الزّهَرْ
يا قلبُ في سَوْقِ الغيوم … لله شـأنٌ لا يُـرى
أمـا تـرى القفرَ إذا … هـلَّ السّحابُ استبشرا
يـا نـفـسُ بابُ اللهِ … واسـعةٌ فيا نفسُ قفي
حُـجّـي إليـه فإنّهُ … مـَن فـاز بالمولى كُفي

(*) شاعر سوري.



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

محبة الله وثمارها

من الحقائق الثابتة والمعروفة عن الإنسان أنه – إن تجاوزنا هيكله الجسدي– كيان ذو حقيقتين: أولاهما الإدراك ومحله الدماغ، الثانية الوجدان ومكانه القلب. ونعني بالإدراك الوظائف التي ينهض بها العقل، ونعني بالوجدان العواطف الدافعة والرادعة والممجدة، وهي عاطفة الحب والكراهية والتعظيم والانبهار. والإنسان إنما يتعامل مع الحياة وشؤونها بهاتين الملكتين؛ أولاهما، ترسم وتخطط، والأخرى تحرك وتدفع إلى التنفيذ. وبعبارة أجلى وأوضح نقول: أما ملكة العقل والوعي فإنما تؤدي عملها بشكل آلي ووظيفة محدودة لا تزيد على كشف الحقائق الخفية وإزاحة الحجب عن القضايا الغامضة. ثم إنها لا تملك بعد ذلك أي سلطان على السلوك، إنها أشبه ما تكون بالمصابيح المثبتة في مقدمة السيارة تبصّر صاحبها بطبيعة الطريق الذي يُسلَكُ إليه، ثم لا تزيد على ذلك. وأما ملكة الوجدان فهي قوة دافعة بل وقودٌ محرك، إنها أشبه ما تكون بالوقود والمحرك داخل السيارة. إذن، فالحياة السلوكية للإنسان تنهض على هاتين الملكتين: إحداهما، تبصّر وتكشف، والأخرى تقود وتدفع.

ثم إن ملكة الوجدان (أي العواطف) في حياة الإنسان يتجاذبها عاملان اثنان: أحدهما: الرعونات النفسية المتمثلة في الأهواء والشهوات وحب الذات ومشاعر الاستكبار، ثانيهما: القرارات العقلية التي يكشف عنها العقل ويضعها أمام صاحبه مجلوّة بعد جهالة أو غموض. والغلبة إنما تكون في أكثر الأحيان للرعونات النفسية، فهي التي تسبق العقل إلى ملكة الوجدان لكي تجندها لحسابها. ومن هنا، ولهذا السبب، نجد كثيرا من الناس يستجيبون

في تصرفاتهم السلوكية لهاجس الغرائز النفسية معرضين عما تمليه عليهم قراراتهم العقلية، إذ تفوز غرائزهم وجموحاتهم النفسية بالسبق إلى مكمن العواطف في كيان صاحبها فيصبح القرار لها لا للعقل وأحكامه.

وقد أدركت المجتمعات الإنسانية منذ أقدم العصور المشكلة التي تنبثق من هذه الظاهرة، فسعت إلى حلّها عن طريق اللجوء إلى ما يسمى بـ"التربية" وأخذ الأجيال بها، وهي تعني العمل على إخضاع غرائز النفس لما تمليه قرارات العقل، ولكن المشكلة بقيت في جملتها قائمة، لأن معظم الوسائل التربوية كانت -ولا تزال- وسائل عقلانية تخاطب الوعي والفكر، والمشكلة لا تكمن في عجز العقل عن الإدراك، وإنما تكمن في هيمنة الغرائز النفسية على العواطف والوجدان. وإنما يكمن الحل في هذا الذي سنقوله هنا.

العقل والوجدان وأثرهما في سلوك الإنسان

الآن.. وقد عرفنا أن الإنسان كيان ذو حقيقتين: العقل الذي يكون به الإدراك، والوجدان الذي هو مصدر الحب والكراهية والتعظيم. فلنعلم إذن، أن هاتين الحقيقتين هما الجناحان اللذان لا يرقى الإنسان إلا بهما إلى مرضاة الله ﷻ. أي فلا يتحقق بلوغ مرضاة الله تعالى بالعقل وحده ولا بالحب وحده، وإنما يتحقق ذلك باجتماع كل منهما على النهج الذي رسمه بيان الله في محكم تنزيله. كثيرون هم الذين عرفوا الله بعقولهم واستدلوا على وجوده ووحدانيته بعلومهم، ولكن عواطفهم القلبية بقيت مستلبة لصالح الرعونات والغرائز النفسية، فلم تفدهم عقولهم وعلومهم شيئا ولم يتقربوا إلى الله بذلك كله شروى نقير. وكثيرون هم الذين توجهت عواطفهم بالحب إلى الله ﷻ، ولكن عقولهم ظلت بحاجة إلى معرفة حقائق الدين وأحكامه وضوابط السلوك في حياة المؤمنين، فلم تفدهم عواطفهم الإسلامية شيئا بل تحولت في حياتهم السلوكية إلى عواصف وسلوكات خاطئة شاردة عن ضوابط الدين وأحكامه. ولنعلم أن الوظيفة التي حمّل الله عباده مسؤولية النهوض بها تتلخص في أن على الإنسان أن يجعل عواطفه من حب وكراهة وخوف وتعظيم تابعة لقرارات العقل وأحكامه، بأن يحب ما يدعو إليه العقل وأن يكره ما يحذّر منه العقل.

وليس في العقلاء من لا يدلّه عقله على وجود الله وعلى أنه متصف بكل صفات الكمال، منزه عن كل صفات النقصان، ومن ثم فإنه ليس في العقلاء من لا يبصّره عقله بهويته عبدا مملوكاً لله، ولكن عواطف الإنسان تكون في الغالب مجندة لرغائب النفس ورعوناتها وأهوائها. ومن ثم فإن ذلك يحول دون الاعتراف بقرارات العقل وأحكامه. إذن، فمشكلة توجه الإنسان بفكره وسلوكه إلى الله لا تكمن في العقل ووعيه، بل إن مشكلته محلولة، لأن إدراك العقل للحقائق عملية آلية لا اختيار له فيها. إن العقل لا يملك أن يختار عدم الإدراك للقضايا الموضوعة أمامه ما دامت موضوعة تحت بصيرته وإن كان صاحب العقل يملك أن يتجاهل القرار الذي وصل إليه عقله.

فأين تكمن إذن مشكلة توجه الإنسان إلى الله؟

إنها تكمن في أن العاطفة التي هي الوقود المحرك لأنشطة الإنسان، تكون في الغالب مستلبة لصالح الرعونات والأهواء النفسية. ما فائدة أن يؤمن العقل بالله إذا كانت محبة القلب لرغائب الشهوات النفسية وملذاتها الحيوانية؟ وقد علمنا قبل قليل أن العقل ليس أكثر من مصباح كاشف، أما الدفع والتحريك فلعواطف الحب والخوف والتعظيم.

عوامل الحب ثلاثة

والسؤال المترتب على هذا هو: فكيف السبيل إلى أن تتحرر العواطف الإنسانية من أسر الرعونات والأهواء النفسية وأن تتحول فتصبح مجندة لمحبة الله والخوف منه والتعظيم له؟ أي كيف السبيل إلى أن نكون ممن قال الله عنهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(المائدة:٥٤). ونلاحظ أنه ﷻ لم يقل: "فسوف يأتي الله بقوم لا يرتابون في وجوده ووحدانيته"، لأن المشكلة لا تكمن في الارتياب أو عدم الارتياب العقلي، وإنما تكمن في الحب إذ يكون متجها إلى الله أو إلى غير الله ﷻ.

والجواب يحتاج إلى تفصيل طويل الذيل، ولكنه يتلخص فيما يلي:

• عوامل الحبُ في حياة الإنسان ثلاثة لا مزيد عليها: إحسان يأسر القلب، أو جمال يأخذ بمجامع النفس، أو عظمة تبهر الوجدان. وهذه العوامل الثلاثة موجودة في ذات الله ﷻ، غير أن الغفلة التي تحيق بالإنسان تجعله يتيه عن ذلك.

ونحن هنا إنما نتحدث عمن آمن بالله ﷻ إيمانا حقيقيا بمقتضى الدلائل العقلية والعلمية؛ من هو المحسن الذي تفد إلى الإنسان في كل لحظة منائحه وإنعامه؟ لا يرتاب ذو عقل آمن بألوهية الله بأن المحسن الأوحد إلى الإنسان في الكون إنما هو الله؛ هو الذي ينيمك إذا تمددت على سريرك في انتظار نعمة الرقاد، وهو الذي يوقظك إذا أخذت حظك الكافي من هذه الإجازة الربانية،

وهو الذي ينقّيك من شوائب السموم ويطهرك من أوضارها إذا دخلت الحمام، وهو الذي أنجدك بالماء الذي تحققت فيه عوامل التطهير، وهو الذي إذا جلست إلى مائدة الطعام أنعم عليك بكل ما لذ وطاب فوقها، إن جميع ذلك ليس إلا حصيلة سماء أمطرت وأرض أنبتت وأنعام سخر الله لك لحومها والألبان التي في ضروعها، وهو الذي يمدك بالعافية ومقومتها لحظة فلحظة. فإذا تذكرت هذه النعم وأضعافها التي تفد إليك وربطتها بالمنعم المتفضل ﷻ، تفجرت في قلبك من هذه المشاعر محبة عارمة لهذا الذي يتوالى إليك إكرامه ولا تنقطع عنك مننه.

ثم من هو الجميل الذي لم تتفرع صور الجمال كلها إلا من جماله؟ لا يرتاب أيضا ذو عقل سبق أن آمن بألوهية الله في أن مصدر الجمال كله بشتى صوره وأنواعه إنما هو الله ﷻ. فمن كان من شأنه أن تأسر صور الجمال المتنوعة لبه وأن تأخذ بمجامع نفسه، وكان ممن عرف الله وآمن به، لابد أن قميمن عليه محبة خالق الجمال في الكون ومبدع الرائحة في العطر، ومفجر العبق في الزهر ومنسق الألوان في الورد. وهل هو إلا الله ﷻ؟ هل من خالق غير الله؟ أما الذين تأسرهم مظاهر العظمة والهيبة والكبرياء، فلن يجدوا بعد الله عظيما لا تخرج الأكوان كلها عن قبضته ولا يفتر ملكوته عن التسبيح بحمده والدينونة لسلطانه، هو المسيّر لنواميس العالم كلها، أعطى كل شيء صورته التي أفرغه فيها، ثم أقامه على الوظيفة التي هداه إليها.

إذن فعوامل الحب الثلاثة لابد أن تسوق إلى محبة الله. لا يستثنى من هذا القرار إلا من لم يهتد إلى معرفة الله بعد.

نتائج محبة الله

والآن ما هي النتائج التي تحققها محبة الله في كيان الإنسان؟ إنها تحقق أولا طهارة النفس من آفة الضغائن والأحقاد ومشاعر الحسد والإستكبار على الآخرين. إن من توهج قلبه بمحبة الله ﷻ، لا يبقى في جوانبه أي مكان لرعونات النفس وأهوائها الغريزية كالضغائن والشحناء ودوافع الظلم ونحوها. لأن هذه الرعونات إنما تثور في النفس بدافع من حب الذات والعصبية للـ"أنا" فإذا هيمنت محبة الله على النفس غابت محبة الذات وحل محلها الانشغال بمراقبة الله وذكره ومحاسبة النفس على ما يصدر عنها من سوء أو تقصير.

وإنها ثانياً تحقق معنى الأخوّة مع الآخرين من أفراد الأسرة الإنسانية. وبيان ذلك: أن الذي يحول دون مدّ جسور هذه الأخوّة بين أفراد الأسرة الإنسانية حواجزُ الضغائن والحقد والحسد والتنافس على المصالح والاستكبار على الآخرين. فإذا ذابت هذه الحواجز في ضرام محبة لله ﷻ فلابد أن تتجلى في مكانها مشاعر الأخوة التي كانت غائبة عن الأذهان والمشاعر تحت تأثير تلك الرعونات والآفات النفسية.

أما النتيجة الثالثة التي تحققها محبة الإنسان لله، فهي شيوع صلة التراحم لاسيما بين الذين يتمتعون بوهج هذا الحب لله تعالى بين جوانحهم. عندما يتلاقى القلبان على معين صاف من محبة الله تعالى، فلابد لهذين القلبين أن يتآلفا وأن يتراحما، كيف لا وقد جمعهما الارتشاف من كأس واحدة هي محبة الذات الإلهيه؟ تأملوا في هذا الذي وصف الله به رسوله محمدا ﷺ إذ قال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، إنها الرحمة التي كان يعامل بها الآخرين وهي -فيما تقرره الآية- منحة له من رب العالمين، ولكن من أي طريق وصلت إليه هذه المنحة؟ إنها وصلت إليه عن طريق الحب الرباني المهيمن على قلبه، وهو حب متبادل بينه وبين مولاه ﷻ. فبهذا الحب كان يعامل الناس أيا كانوا باللين واللطف، ولم يُعهد عنه أنه واجه أحدا من الناس بالغلظة أو الفظاظة.

والنتيجة الرابعة التي تثمرها محبة الإنسان لله الاندفاع إلى الموعظة والنصح والدعوة بعامل الشفقة والرحمة والغيرة. ذلك لأن حبه لله تعالى يدعوه إلى الانقياد لأوامره واتباع وصاياه وهو يقرأ فيما يقرأ من وصاياه وأوامره قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥)، ولأنه يقرأ فيما يقرأ قرار تكريم الله للإنسان وأمره الملائكة بالسجود له متمثلا في شخص أبيه آدم. إذن، لابد أن يقوده حبه لله ﷻ إلى تكريم من كرّمه الله وتبجيله، فإذا قام بواجب نصحه ودعوته إلى الحق وتحذيره من التوجه إلى الباطل، فإنما يقوم بذلك بدافع من حبه له وغيرته عليه والرحمة به. وهيهات أن يجتمع الحب الحقيقي لله مع الدعوة إلى الله بدافع من التعالي على من يلاحَقُون بالدعوة ويواجهون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أو بدافع الانتقاص من مكانتهم أو التشهير بهم أو ابتغاء الوصول إلى مصالح شخصية أو مكاسب مادية لأنفسهم. وإن لنا في سيرة رسول الله ومواقفه من المشركين وأذاهم له واستكبارهم عليه، ما يجسد لك هذه الحقيقة ويضعنا أمام المزيد من نتائج محبة الإنسان لله ﷻ.

محبة الله للإنسان أسبق من محبة الإنسان له

وبعد، فلنتساءل أيهما أسبق من الآخر: حب الله للإنسان أم حب الإنسان لله؟

والجواب أن مما لا ريب فيه أن محبة الله للإنسان أسبق من محبة الإنسان لله. والدليل الأول على ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة:٥٤) فقد قرر البيان الإلهي محبته لهم قبل محبتهم له، أي فهم يحبونه بحبه ﷻ لهم.

والدليل الثاني يتمثل في التكريم الذي أضفاه الله على الإنسان، إذ نسب روحه السارية في كيانه إلى ذاته العلية، وفي أمره الملائكة بالسجود له متمثلا في شخص أبيه آدم، وفي إعلانه البياني عن هذا التكريم بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠)، والتكريم لا يكون إلا أثرا من آثار الحب. إذن، فقد كان حب الله للإنسان سابقا على حبه له. ثم إن مآل هذا التكريم إلى ما يقرره الإنسان ويصنعه بحق نفسه. فمن الناس من ازدادت مكانتهم عند الله علوا وتكريما، ومنهم من تدنّت بشكل جزئي، ومنهم من تحولت بهم إلى النقيض، فردهم الله -كما قال- أسفل السافلين. والمهم أن الإنسان -أيا كان- مكرّم في أصل نشأته عند الله، وذلك دليل على حبه السابق له.

ومما لا ريب فيه أن كل مسلم صادقٍ في إسلامه لابد أن يكون له نصيب من محبة الله له. وأقل ذلك ما يدل عليه إسلامه وإيمانه بالله ﷻ. إذ لو لم يكن له عند الله من المنزلة ما يستدعي انجذابه إلى الإسلام وتوجُّه قلبه إلى الإيمان، لما تمتع مظهره بتعاليمه، ولما سرت عقائده إلى قلبه. وصدق الله القائل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). ثم إن المسلم تزداد منزلته عند الله علوًّا، كلما ازداد صدقاً مع الله في إسلامه والتزاماً بأحكامه وأوامره.

وإذا علم أحدنا أن ما يشعر به من حب وتعظيم لله تعالى ليس إلا ثمرة محبة الله له ورحمته به وفضله عليه، فإن علمه هذا سيحول دون دخول شيء من التباهي أو العجب في نفسه، بل يشعر بمزيد من منة الله وفضله عليه. والشأن في هذا الشعور أن يزيده حبا لله وتعظيماً له وتعلقاً به. لقد أحبك الله فجذبك إليه وعرّفك على ذاته وحبب إليك الانقياد لأوامره، أفلا تنبعث في نفسك نشوة قدسية من هذا الشعور؟ ومن ثَمَّ أفلا تُلهِبُ هذه النشوة فؤادك بمزيد من الحب له؟ هذه النشوة هي التي دفعت امرأة صالحة كانت تخدم في دار رجل ثريّ أن تناجي ربها ليلا في سجودها قائلة: "أللهم إني أسألك بحبك لي أن ترحمني وتكرمني". فسمع الرجل دعاءها وانتقدها قائلا: "ما أدراك أنه يحبك؟ أفلا قلت: أسألك بحبي لك؟" فقالت: "يا سيدي لولا حبه لي ما أيقظني في هذه الساعة، لولا حبه لي ما أوقفني بين يديه، لولا حبه لي ما أنطقني بهذه النجوى".

فإذا عاد أحدنا إلى نفسه، وشعر بأن شعاعا من محبة الله يسري إلى قلبه، ونظر فوجد أن الله قد أقامه من شؤون الحياة ووظائفها فيما يرضيه وصرفه عما لا يرضيه، فلترقص الفرحة بين جوانحه، إذ كان -وهو التافه الحقير- مكانا لعناية الله به والتفاته إليه، وإقامته له مقام الوداد والقرب منه. أما إن عاد إلى نفسه فرآها محجوبة عن شمس الهداية، غارقة في ظلمات الأوهام، وعاد إلى سلوكه فرأى نفسه سجينا في أودية المعاصي والآثام، شاردا عن ساحة الطاعات والعبادات، فليعلم إذن، أن هذا هو عنوان منزلته عند الله، وليعلم أنه إن طال به الوضع على هذه الحال، فإنما هو نذير شقاء دائم لا مردّ له ولا رجوع عنه. فإذا كانت ذاته عزيزة عليه، ولم تكن قد هانت عليه إلى درجة اللامبالاة، فليتدارك شأنه اليوم ولينتهز الفرصة التي لا تزال سانحة أمامه. سبيلُ هذا التدارك أن يدخل على الله من باب الفاقة والذل، وأن يشكو إليه حاله، وأن يعتذر إليه بضعفه وعجزه، وليناجه قائلا: "لئن طردتَني يا رب عن منازل تكريمك وعن مدارج توفيقك، فحاشاك أن تطردني من أبواب رحمتك المفتّحة أمام جميع عبادك. وها أنا يا سيدي قد وفدت إليك من بابك هذا، وارتميت بنفسي في أعتاب كرمك، وكلّي ضعف وعجز وذل وهوان، فاجعل من ضعفي المتهالك وذلي المنكسر شفيعاً لي بين يديك".

ألا ولنعلم أننا إن تداركنا أمرنا فدخلنا على الله من هذا الباب، فلسوف يستجيب دعاءنا ويقبل رجاءنا ويذيقنا بَرْدَ ألطافه الخفية ومغفرته الواسعة. وصدق من قال: "الصلح بلمحة".

أسأل الله تعالى أن يقينا من جنون الاستكبار عليه، وأن لا ينسينا مملوكيّتنا وعبوديتنا له، وأن يجعلنا دائما على ذكر من حالنا ساعة الرحيل عن هذه الحياة الدنيا. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.

الرؤية التكاملية
وطب المستقبل

أ.د. خالد عمارة *

لا يزال الكثيرون ينظرون للإنسان كنسخة متطورة من الحيوان، أو -في تصور آخر- كحيوان ذكي جعله ذكاؤه أكثر قدرة على السيطرة على الطبيعة وما حوله. كما جعله ذكاؤه أكثر طموحا وطمعا في المزيد من الشهوات والرغبات قياسا بباقي الحيوانات التي لا تجاريه في هذا الطموح. فطموح الحيوان هو السيطرة على قطيع أو منطقة من الغابة، بينما طموح الإنسان السيطرة على شعوب وقارات وكواكب. وبالتالي فالرغبة دافعها واحد والشهوات مصدرها واحد ولكن التعبير عنها يختلف حسب قدرة وذكاء الحيوان. والهدف من هذا هو المتعة الحسية والشعور بالسعادة. والطريق إلى هذه السعادة هو إشباع الغرائز. فهذا الكائن هو ماكينة تبحث عن العمل والنوم والمتعة الحسية ثم المزيد من العمل والإنتاج والتراكم المادي للممتلكات.

ومع هذه النظرة التي تقدم الإنسان كمصارع للطبيعة بدلا من أن يكون جزءا منها، نجد الكثيرين يفترضون أن قهر وتدمير الطبيعة هو شرط لتقدم الإنسان المادي وسعادته.

إشباع الجسد والروح معا

لكن هناك الكثير من العلامات التي تتعارض مع هذا التصور، وتنفي هذا التفسير للسلوك الإنساني في سعيه وراء السعادة والأمان. إذ لا يعقل أن هذا الحيوان المتعطش لإشباع غرائز التملك والمتعة يضحي بوقته في التعبد، أو مشاهدة لوحة فنية، أو الاستماع إلى موسيقى... فهذا لا يتماشى مع منطق الكائن المنتج الساعي وراء القوة والسيطرة فقط. بماذا نفسر وجود من يحرم نفسه من الطعام، أو يدفع المال لمساعدة فقير أو طفل أو ضعيف، رغم أن هذه الأفعال لن تزيد من ممتلكات هذا الإنسان أو من سيطرته؟ لماذا تدعو المجتمعات للعطف على كبير السن



والضعيف والمريض رغم كون هؤلاء يُعتبَرون -بالمقاييس المادية- معوقـات للإنتاج والعمل؟ لماذا ظل الإنسـان على مر العصور يضيـع وقته في الصـلاة لمعبود أو في بناء مباني جميلة أو رسـم لوحات فنية أو تأمل الطبيعة أو عمل مقطوعات موسـيقية تمس المشـاعر والأحاسـيس، وهو ليس مجبرا على هذا، بل في أغلب الحالات هو يجد متعة في فعل هذا، ويتباهى به؟

إذن الإنسـان ذو الجسد الحيواني، ذو الشـهوات والغرائز والرغبات له وجه آخر روحاني لا يمكن إنكاره. وهذا الإنسـان كي يصل إلى السـعادة المنشـودة لابد أن يُرضي الشق المادي والشق الروحي معا.

العلوم وفلسفة الحضارة

فروع العلم كلها -بما فيها الطب- تتأثر بفلسفة المجتمع المحيط بهـا ومتطلباته؛ فنجد مثلا الحضارة الإسـلامية برعت في علوم الهندسة والحسـاب والفلك، وربما كان هذا لاحتياج الناس إلى تنظيم صلواتهم وصيامهم. ونجد علما مثل علم الأجناس وتصنيف الشـعوب يتطور وينمو مع حكم الدول العنصريـه، مثل ألمانيا النازية، وأثناء غزو الأوروبيين للأمريكتين وإفريقيا... وفي المقابل نجد فلسـفة المجتمع تتأثر بما تجده مناسـبا لها من العلوم؛ فنجد نظرية مثل نظريـة داروين في الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى -رغم وجود الكثير من الأدلة المضادة لهذه النظرية- إلا أن هذه النظرية تجد من يؤازرها ويضعها في محل التطبيق على المسـتوى الاجتماعي والحضاري، وليس فقط على المسـتوى البيولوجي، ويجد فيها المبرر الأخلاقي لقهر الشعوب ونهب الثروات وتلويث البيئة وتدمير الطبيعة.

في الطـب كان من الطبيعي أن ينظر الطبيب إلى الإنسـان كوحدة متكاملة من جسد وروح، هكذا كانت النظرة منذ أقدم العصور. فكنا نجد حكيم القبيلة المسـؤول عن علاج الأمراض هو نفس الشـخص الذي يسـتعين به أفراد القبيلة لاتخاذ قرار صعب أو في التعبد والصلاة. وكان هذا الشخص يجمع بين العلم والروحانية والسحر والشعوذة والطقوس الموروثة.

ولقد تطور الأمر في بعض الحضارات، فوجدنا في الحضارة اليونانية فلاسفة وأطباء في نفس الوقت. ومع الحضارة الإسلامية وجدنا هذا التطور في أبدع صوره تكاملا، لقد رأينا العالم والطبيب والكيمائي هو نفس الإنسـان الشاعر والفقيه والفيلسوف. لقد رأينا صورا من الإبداع في العلـوم المادية التجريبية صدرت من الفقيـه صاحب الإبداعات الفنية والفلسـفية. من أمثلة هذا في الطب ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) والرازي (٨٦٤-٩٢٣م) وابن النفيس (١٢١٠-١٢٨٨م)...إلخ.

طب الجسد وطب الروح

ولكن مع ظهور الحضـارة الغربية الحديثة حدث تحول عن هذا الاتجاه في العلم والطب. فكان أن أخذت أوروبا عن المسـلمين العلـوم التجريبية منفصلة عن الروحانيات. وقامت نهضه أوروبا على فصل العلوم التجريبية عن الروحية. ولقد حدث هذا نتيجة اضطهاد الكنيسـة في تلـك العصور للعلـم والعلماء وللمنهج التجريـبي ممـا أدى إلى رد الفعل بفصل الديـن عن الدولة، والروحانيات عـن العلوم المادية، والأخلاقيـات عن التجارة، وطب الجسد عن طب الروح. وكانت النتيجة شعار: "الغاية تبرر الوسيلة" في السياسـة والحكومات، ومجتمعات تنفق على علوم تخترع أسلحة الدمار الشامل أكثر مما تنفق على التعليم أو الغذاء، وتجارة رأسمالية تستغل الشـعوب ويزيد معها غنى الأغنياء وفقر الفقراء، وإنسـان يقهر ويدمر الطبيعة في سبيل المزيد من المال، وطب ينظر إلى الإنسـان كمجموعة مـن التفاعلات الكميائية والوصلات الكهربية والعلاقات الهندسية دون أن يرى الروح التي نفخها الله في هذا الإنسان، وإبداع الخالق من وراء كل ذلك.

ومما يدعو للحزن أن هذا النهم والإشباع المادي الذي تحصل عليه قلة من أهل الأرض على حساب باقي الشعوب لم يفلح في أن يعطي هذه القلة الشـعور بالسعادة أو الاطمئنان، وظل هناك سعي محموم وراء السعادة بمحاولةِ تملّكِ المزيد وإشباعِ المزيد من الشهوات، وهكذا استمرت الحلقة المفرغة دون سقف أو شاطئ مأمون. وظهرت هناك زيادة في الكم دون الكيف؛ فوجدنا الإنسان يعيش أعواما أكثر ولكن مع تعاسـة واكتئاب. ووجدنا أمراضا تتم السـيطرة عليها ولكن دون أن تتحسن نوعية حياة المريض أو قدرته على الشـعور بالسعادة والأمان، أو الاستمتاع بالحياة.

بشائر الأمل

ولكن بشائر الأمل قد بدأت في الظهور، ففي أثناء العقد الأخير بدأت تظهر توجهات -رغم بسـاطتها- على أن العلم والطب سوف يعود إلى سـابق عهده في رؤية متكاملة للمادة والروح. وللنظـرة التي تعي الطبيعة ومـا وراء الطبيعة. نظرة ترى الكون والخلق، وتشـعر بعظمة الخالق، وتستشـعر روح الكائنات ولا تكتفي بما تسـتقبله حواسنا الخمس البسيطة من سمع وبصر وشم

ولمـــس...إلخ، تلك الحواس التي وهبنا الله إياها لتســـاعدنا على الإدراك وليس لتكون منتهى إدراكنا للكون. والنظر للإنســـان كجزء من البيئة المحيطة يجمعه معها مصالح مشتركة وليس كعدو أو مصارع لها.

أمثلة من جراحة العظام

كانت نظرة الأطباء إلى الإنســـان كمجموعـــة من التفاعلات الكميائية والكهربيات، وإلى العظام كروافع هندسية. كانت هذه النظرة هي العامل المحرك في تطور علاج أمراضِ وكسور العظام، وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين؛ ففي علاج الكسور كان الأسلوب الغالب هو تثبيت الكسر بأقوى الوسائل وأشدها صلابة من شرائح معدنية أو مسامير. وكان التنافس بين العلماء هو في اكتشاف مواد أكثر تحملا للضغوط المتكررة على جسم الإنسان، وفي الوصول إلى تصميمات أكثـــر متانة كي تعيش أطول عمر ممكن داخل جسم الإنسان وكي يتقبلها الجسم مدة أطول قبل أن تنهار تحت ضغط التحريك المتكرر والاحتكاك والتآكل التدريجي للمعادن، وتآكل العظام والأنســـجة المحيطة بالجســـم الغريب.

وفي علاج المفاصل المريضة أو علاج الأورام انتشرت طريقة تعتمد على إزالة الورم أو المفصل المريض واستبداله بمفصل صناعي من سبائك معدنية وبلاستيك. وظل نفس التحدي هو الحصول على مادة تعيش فترة كافية ويتقبلها الجســـم، وتتحمل الضغوط والاحتكاك كي تقوم بالعمل داخل جســـم الإنسان مثل المفصل والعظام الطبيعية، وتسمح لمن أجريت له هذه الجراحة بالعودة إلى حياته الطبيعية أو أقرب ما يكون إلى ذلك.

ولكن محاولات الأطباء والعلماء لم تصل حتى الآن إلا إلى نجاح محدود نسبيا؛ فالعمر الافتراضى لأغلب هذه المفاصل الاصطناعية يتراوح بين عشـــرة وخمسة عشر عاما، في حين أن متوسط عمر الإنسان يتراوح بين ثمانين وتسعين عاما. وهذه المفاصل لا تعطي مجـــال الحركة الطبيعي أو القوة الطبيعية أو الليونة أو القدرة على المنـــاورة التي يمنحها المفصل الطبيعي، حيث إنها تفتقد إلى الكثير مـــن التفاصيل الدقيقة التي تحتويها العظام الحية. ثم إن مضاعفات هذه الجراحات عالية نسبيا، حيث إن وجود جسم غريب بحجم كبير مثل المفصل الصناعي يجعل المريض أكثر عرضة واســـتعدادا لحدوث تلوث صديدي، وللعدوى بالميكروبات، حيث إن مناعة المنطقـــة التي يتم إجراء الجراحة بها تكون أقل من باقي الجســـد، وذلك لأن الدورة الدموية -بما تحملـــه من كرات الدم البيضاء والمواد المسؤولة عن الدفاع عن جسم الإنسان ضد الميكروبات- لا تكون متواجدة داخل هذا الجســـم الغريب، وبالتالي فإن هذا المفصل الصناعي أو الجسم الغريب يكون مَخْبأ ممتازا للميكروبات التي تختبئ فيه من أجهزة المناعة لدى الجســـم. وعند انتهاء العمر الافتراضي للمفصل وتآكله أو تآكل العظام والأنســـجة المحيطة به يحتاج المريـــض إلى جراحات أخرى أكثر تعقيدا، وأقل بكثير في نسبة النجاح.

ولكل هذا -ولأسباب أخرى- ينصح الأطباء بتأخير تركيب هذا المفصل الصناعي، وقَصر تركيبه على الموغل في السن، ليس فقط لقصـــر عمره الافتراضي، ولكـــن لأن تحمل هذه المفاصل محدود، ولا تتحمل نشـــاطَ أو حركةَ شـــاب رياضي أو جندي أو عامل في حقـــل، فينصح الأطباء مثل هؤلاء بالتقاعد والتقليل من الحركة قبل إجراء الجراحة وبعد إجرائها، كي يعيش المفصل الصناعي أطول وقت ممكن.

وبالطبع هذه المفاصل لا تنمو، فلا يمكن تركيبها في الأطفال إلا في حالات خاصه.

العودة إلى النظرة التكاملية

لكل هذه الأســـباب بدأ الإنســـان يبحث عن بديل حي للعظام المريضه، وبدأ يعرف أن أســـرار الحياة المعقدة لا يمكن استبدالها ببعض السبائك والأجهزة البسيطة، فبدأ في البحث عن بدائل حية في صورة زرع العظام من المريض نفسه (وهذا كميته محدودة ولا تكفي لتعويض نقص كبير بالعظام)، أو عن طريق ما يسمى ببنك العظام، وهو بنك يحفظ عظاما من أشخاص متوفّين أو متبرعين. ولكن قدرة التئام هذه العظام المنقولة من شـــخص غريب تكون محدودة جدا، إما نتيجة رفض الجسم لها ومهاجمة جهاز المناعة لها لكونها أنسجة غريبة، أو لعدم احتوائها على ما يكفي من الخلايا الحية التي يحتاجها الجســـم أو المكان المصاب، وذلك نتيجة موت أغلب الخلايا أثناء عملية التبريد والحفظ أو التعقيم بالبنك.

وهنا ظهرت بـــوادر مرحلة جديدة من العلاج وهي العلاج بخلايا حية من جســـم الإنسان نفسه، ولكن لها القدرة على بناء أنسجة جديدة تحل محل الأنسجة المصابة.

ومن هذه الطرق ما يسمى طريقة إعادة تكوين الأنسجة عن طريق الإطالة التدريجية، وهي طريقة وصفها عالم روســـي يدعى "أليزاروف" في الستينيات من القرن العشرين، ولكن بدأت تنتشر حول العالم مع أوائل التسعينيات من القرن العشرين. وهي عبارة



عن عمل شــق بالعظام بطريقة جراحيــة معينة ينتج عنه بعد عشرة أيام من الجراحة ما يشبه مركز النمو لدى الأطفال. ثم يتــم توجيه النمو عن طريق أجهزة تثبيت داخلية أو خارجية في الاتجاه المطلوب، وبســرعة مليمتــر واحد في اليوم. أي، إذا كان المطلوب إطالة ساق قصيرة مسافة ثلاثة سنتيمترات فتتــم الإطالة على مدى ثلاثين يومــا، بعدها ينتظر الطبيب المعالج بعض الوقت حتى يتم نضج الأنسجه الجديدة ثم يُزيل جهاز التثبيت الداخلي أو الخارجي ويعود الإنسان إلى حياته الطبيعيه. ونلحظ هنا أن هــذه الطريقة يَنتج عنها ليس فقط خلايا من عظام جديدة بل وعضلاتٌ وأعصاب وشــرايين وجلد...إلخ.

ومع هذه المرحلة الجديــدة ظهر العلاج بالخلايا الجذعية -ولكن لا يزال في مراحل التجربة الأولى ولم يتم اســتعماله علــى مجال واســع بعد- وهــي خلايا جنينيــة في مراحل التطــور الأولى، ويتــم التحكم في تطورهــا ونضجها إلى النســيج المطلوب والذي يحتاجه المريــض. فإذا كانت هناك مشــكله بغضاريفِ أحد المفاصل فيمكــن تعويض الخلايا المريضة بخلايا جديدة يتم توجيه نشــاطها بحيث تتحول إلى خلايــا غضروفية يتم زرعها بالجســم في المرحلة المناســبة.

وهناك العلاج بالهندسة الوراثية والجينات، وهو أيضا محل بحث في المراحل الأولية، وبه يمكن التحكم فيما تفرزه الخلايا مــن مواد وما تقوم به من تفاعــلات عن طريق تغيير ترتيب الجينات والأحماض الأمينية بنواة الخلايا، بحيث يمكن تشجيع الخلايا على إنتاج مادة ناقصة من جسم الإنسان المريض، أو التوقــف عن إنتاج مادة أو نوع من الخلايا التي قد تكون هي سبب المرض.

مما ســبق، نجد أن العلم الإنســاني قد بدأ يعود ثانية إلى التعامل مع الحياة كمجموعة متكاملة متداخلة من التفاعلات. منها ما هو مادة ومنها ما هو روح، قد يكون هذا التعامل في مراحل أولية، وقد يستمر هذا الاتجاه أو ينتكس، قد يصل إلى ما نحلم به بعد عدة سنوات أو عدة قرون، ولكن على المدى الطويل نتمنى أن نعود إلى النظــرة المتكاملة للصحة والمرض وللجسد والروح، والتكامل -بدلا من التضاد- بين الإنسان والكون. ■

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.

رحمة الرحمن

أصغِ يا إنسان..
ففي يبس التراب حنين،
وفي قلب الماء حرقة وأنين،
وفي الهواء نَوْحٌ ولوعةٌ ودمعٌ سخين،
والخالق الرحمن،
إليهنّ ينظر،
وعليهن يشفق،
ولضراعاتهنّ يستجيب،
فإذا شآبيب الرحمة تتهاطل،
وغيوث السماء تنهمر،
والأرجاء تخضر،
والآفاق بالنور تنهلّ..
*** * ***

الكون والطبيعة
في فكر الإمام النورسي

أ.د. فاروق حمادة *

هبت رياح صرصر عاتية على العالم الإسلامي من جهات العالم الأربع في نهاية القرن الماضي للميلاد، تحمل بذورا على الإنسانية مشؤومة، تنبت الزندقة والإلحاد، وتنكر الغيب وتؤمن بالحس والمادة وتهزأ مما سواهما. وطاشت تحت وطأتها عقول الراشدين الأسوياء، إلا من رحم الله، فمن موافق ومن متجاهل ومن ملفق، وقليل ما هم الذين واجهوا الأعاصير هذه وتصدوا لها بحواجز الإيمان ومعارف القرآن وبما تسلم به عقول الأسوياء من بني الإنسان. ومن هؤلاء النخبة المصطفاة والخيرة المجتباة النابغةُ المتميز، بديع الزمان سعيد النُورْسِي الذي كان تحطيم مركز وجوده هو المقصود، ومركز الدائرة وسرها المرصود.

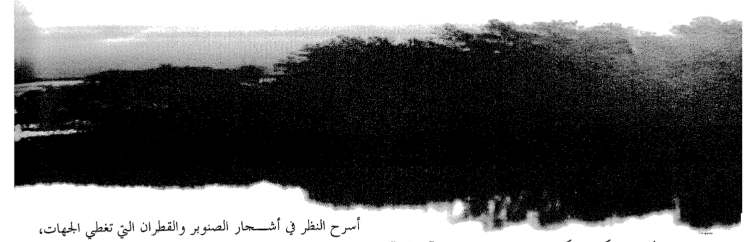
لقد كرع هذا من حياض القرآن وهديه، وأصاخ السمع للمعارف الجديدة بعقله وقلبه، فشرح الله منه الصدر والفؤاد، وبدأ يجابه المادة بنفس ما تستعمله من سلاح وعتاد، ألا هو المادة والطبيعة والكون والإنسان فأجاد في ذلك أيما إجادة، وأفاد فوائد تربو على الحصر والزيادة. وفي تقديري أن استعماله لهذا السلاح الذي كان يمسك به الخصم هو الذي جعل الشباب يقبلون على رسائله وينتظرون أبكار أفكاره، وواضح أدلته. فثبت الله به الجم الغفير، وكتب لعمله وعطائه البقاء، غضا طريا، تستهديه الأجيال وتستنير به القلوب الظامئة الطامحة إلى أحسن الأحوال.

لقد كان للكون والطبيعة أثر بالغ في نفس النورسي، ويرى في ذلك أدلة حق قاطع، وشهادات صدق ساطع، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(الأنفال:٤٢). ففي كل صفحة من رسائله وكتبه يرى قراؤه الكون والطبيعة، فكيف كان أثر هذه الرؤية على نفسه أولا؟

النورسي والكون

إن ظروف وحدته في سجونه وتنقلاته، فتحت على الكون عين بصره وبصيرته، فأصبح يرى ما لا يراه المغمورون في





خضم الحياة. وبحكم ما تكنه حناياه ومشــاعره من آي القرآن، تولّد لديه إحســاس مرهف بهذا الكون من حوله، ففجر طاقات عظيمة جدا، واقتبس نزرا من النماذج الكثيرة الوفيرة التي تبين لنا مدى تأثـره وتفاعله بهذا من حوله. يقول رحمه الله: "في إحدى الليالي كنت على ارتفاع عظيم في وكر منصوب على قمة شجرة القطران المرتفعة على قمة من قمم جبل "جام"، نظرت من هناك إلى وجه الســماء الأنيس الجميل بمصابيح النجوم، فرأيت أن في القَســم الوارد في الآية الكريمة: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾(التكوير:١٥-١٦) نورا ساميا من أنوار الإعجاز، وشاهدت فيه سرا بليغا لامعا من أسرار البلاغة".

ويقول: "لقد بقيت منذ شهرين أو ثلاثة وحيدا فريدا، وربما يأتيني ضيف في كل عشــرين يوما أو ما يقرب من ذلك، فأظل وحيدا في سائر الأوقات، ففي هذه الجبال الموحية بالغربة، وعندما يرخي الليل ســدوله، فلا صوت ولا صدى إلا حفيف الأشجار الحزين، رأيتني وقد غمرتني خمسة ألوان من الغربة...".

ويقول: "كنت جالسا ذات يوم في الطابق العلوي من فندق "شهر" عقب إطلاق سراحنا من سجن "دنيزلي" أتأمل فيما حولي من أشجار الجور والصفصاف الكثيرة في الحدائق الغناء والبساتين الجميلة، رأيتها جذلانة بحركاتها الراقصة الجذابة تتمايل بجذوعها وأغصانها، وتهتز أوراقها بأدنى لمسة من نسيم، فبدت أمامي بأبهى صورها وأحلاها وكأنها تسبح لله في حلقات ذكر وتهليل. مست هذه الحركات اللطيفة أوتار قلبي المحزون من فراق إخواني، وأنا مغموم لانفرادي وبقائــي وحيدا، فخطر على البال فجأةً موسَما الخريفِ والشــتاءِ وانتابتني غفلة، إذ ستتناثر الأوراق وسيذهب الرواء والجمال، وبدأتُ أتألم على تلك الصور الجميلة، وأتحســر على سائر الأحياء التي تتجلى فيها تلك النشوة الفائقة تألما شديدا حتى أغرورقت عيناي واحتشــدت على رأســي أحزان تدفقت من الزوال والفراق تملأ هذا الســتار المزركش البهيج للكائنات.

ويقــول: "بينما كنت على قمة جبل في "بارلا" أيام منفاي، أسرح النظر في أشــجار الصنوبر والقطران التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها، إذ هب نسيم رقيق حوّل ذلك الموضع المهيب الرائع إلى أوضاعِ تسبيحات وذِكر جذابة، واهتزازات نشوة شوق وتهليل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يعتصر عبرا أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لأحمد الجزري ترجمتها:

لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك.
إنهم بجمالك يتغنجون،
وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبي على هذه الصورة،
يا رب إن كل حي يتطلع من كل مكان،
فينظرون معا إلى حسنك،
ويتأملونه في روائع الأرض التي هي معرض صنعك،
فهم كالدعاة الأدلاء ينادون من كل مكان...
من الأرض ومن السماوات العلى إلى جمالك...إلخ.

ويقول في الكلمات: "كنت سارحا في رفقة غربتي أسوح مع الفكر، وأجول مع الخيال والتأمل. فقادتني قدماي إلى سفح رابية مزدانة بالخضرة فرنت إليّ على اســتحياء من وسط هذا البساط الأخضر زهرةٌ صفراء ســاطعة النضرة، وألوت جيدا إليّ تناغيني بود ومحبة، فأثارت مشاعري وأشواقي إلى زهرات مثلها التقيتها في ربوع بلدتي "وان" وفي سائر المدن الأخرى التي كانت تحتضن غربتي مرة بعد أخرى، فانهال هذا المعنى فجأة على قلبي...".

النورسي بين الكتابين

لقد كان النورسي رحمه الله مرهف الإحساس رقيق المشاعر يقظ الفؤاد نبيه الفكر، رأى الكون والطبيعة من حوله فتأمل فيها بهذا الإرهاف والنباهة. فعكس ذلك علــى قلبه أفكارا عميقة الغور بعيدة المدى. إنه يرى كل شيء في هذا الوجود من حوله صغيرا وكبــيرا، فينظر إلى موضعه وغايته وهــدف وجوده ويفجر منه الأحاسيس والأفكار، وقد نثر ذلك في كتابه بما يضيق المقام عنه.

إن القارئ ليشعر أن آيات الكتاب المسطور (القرآن الكريم)



تفاعلت في كيانه مع آيات الكتاب المنظور (الكون)، فأبدع أروع الأفكار وأهم الرؤى والآثار، ومن تتبّع ما كتب نجد أن أكثر ما أثر فيه منظر الربيع بما يضمه ويبتدئ فيه من حياة، ومنظر الخريف، وكيف يتغير فيه وجه الأرض ويستعد للموت، لذلك أكثر جدا من وصف هذا المنظر المؤثر البليغ. علما بأنه تأمل في صغير المخلوقات وكبيرها، من الأرض والسماء انتهاء إلى صغيرها كالأرضة والبعوضة والنحلة والذباب، وتأمّلَ في النافع والضار، وبيّن حكمة هذه الأضداد في مخلوقات الله وضرورتها وفائدتها.

وإنه في سياحته الكونية، وتقلبه في أحضان الطبيعة في ليلها ونهارها، وفي ظاهرها وباطنها في صغيرها وكبيرها، كان يرى أن هذا الكون مع تباعد أرجائه، واختلاف مادته وأحيائه هو شجرة متناسقة، تؤدي وظيفتها بدقة وإتقان، وتدل على الكبير المتعال. وبهذا الكون أنكر الماديون الخالق ونفوا عالم الغيب وتبلد فيهم الإحساس، فهو بنفس السلاح يحاربهم وبمظاهر هذا الكون وأرجاء الطبيعة يقرعهم ويوقظهم من غفلات جهلهم.

الأرض قصر ضيافة

وكان يرى كذلك أن هذا الكوكب الأرضي قصر منيف، لضيافة الإنسان، يأتيه رزقه رغدا من كل مكان، يقول: "رحمتُك المطلقة التي صيرت الكون في حكم قصر منيف لذوي الأرواح وبخاصة الإنسان".

ويقول: "إن تجدد المصنوعات الجميلة، وتبدل المخلوقات اللطيفة ضمن الغروب والشروق، وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تدل على وجودِ ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موت تلك المصنوعات وزوالها بأسبابها الظاهرة يبين تفاهة تلك الأسباب وعجزها وكونها ستارا وحجابا ليس إلا، فيُثبت لنا هذا الوضع إثباتا قاطعا أن هذه الخلقة والصنعة وهذه النقوش والتجليات إنما هي مصنوعات ومخلوقات متجددة للخالق ﷻ الذي جميع أسمائه الحسنى مقدسة بل هي نقوشه المتحولة ومراياه المتحركة، وأختامه المتبدلة بحكمة".

إنه كرر مرارا في رسائله وأفكاره أن هذا الكون فيه أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، يقول في الكلمات: "لو أن جيشا عظيما يضم تحت لوائه أربعمائة ألف نوع من الشعوب والأمم لكل نوع جنس طعامه المستقل عن الآخر، ونمط تدريباته وتعليماته يباين الآخر، ومدة عمله وفترة رخصته هي غير المدة للآخر... فقائد هذا الجيش الذي يزودهم وحده بالأرزاق المختلفة والأسلحة المتباينة والألبسة المتغايرة دون نسيانه أيا منها ولا التباس ولا حيرة لهو قائد ذو خوارق بلا ريب، فكما أن هذا المعسكر العجيب يرينا بداهةً ذلك القائدَ الخارق، بل يحببه إلينا بكل تقدير وإعجاب كذلك معسكر الأرض، ففي كل ربيع يجند مجددا جيشا سبحانيا عظيما مكونا من أربعمائة ألف نوع من شعوب النباتات وأمم الحيوانات، ويمنح لكل نوع ألبسته وأرزاقه وأسلحته ورخصه الخاصة به من لدن قائد عظيم واحد جل وعلا بلا نسيان ولا اختلاط ولا تحير، وفي منتهى الكمال وغاية الانتظام".

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾(البقرة:١٦٤): "ما من جرم في الأجرام السماوية إلا ويشهد شهادة على ربوبيتك وإشارة إلى وحدتك بسكونها في أداء وظيفتها بلا ضوضاء وببقائها بلا عمد. وما من نجم إلا ويشهد على عظمة ألوهيتك ويشير إلى وحدانيتك بخلقته الموزونة وبوضعه المنتظِم وبتبسمه النوراني وبمماثلته ومشابهته للنجوم كافة. فهذه السماوات الصافية الطاهرة الجميلة تدل دلالة ظاهرة على هيبةِ وعظمة قدرتك المبدعة، وتشير إشارة قوية إلى سعة حاكميتك المحيطة بالسماوات الشاسعة، وإلى رحمتك الواسعة المحتضِنة لكل ذي حياة، وتشهد بلا ريب على شمول حكمتك لكل فعل وعلى إحاطة علمك بكل شيء المنظِّمين في قبضتهما جميعَ شؤونِ وكيفيات جميع المخلوقات السماوية بأجرامها التي هي في غاية الضخامة وفي غاية السرعة، وبإظهارها أوضاعَ جيش منظم ومهرجان مهيب مزين بمصابيح وضاءة،

فتلك الشـــهادة والدلالة ظاهرتان جليتان، كأن النجوم كلماتُ شهادة للســماوات الشاهدة ودلائلها المتجســمة النورانية. أما النجوم السابحة في بحر السماوات وفي فضائها فإنها تُظهر شعشعةَ سلطانِ ألوهيتك بأوضاعها المماثلة لجنود منصاعين وسفن منتظمة وطائرات خارقة ومصابيح عجيبة، ورفيقات شمسنا التي هي نجمة من ذلك الجيش ترنو إلى عوالم الآخرة، وليســت معطلة بدلالة وظائف الشمس سياراتها وفي أرضها ولربما هي شموس عوالم باقية.

ويقول في تفسير ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(آل عمران:١٧٣): "إنك تستند بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة بحيث يجهِّز بانتظام تام في كل موســم ربيع على ســطح الأرض جميعَ جيوش النباتات والحيوانات المتشــكلة من أربعمائة ألف من الأمم والطوائف بالأعتــدة والأجهزة اللازمة، فيجدِّد ملابسَ جيشه العظيمة وهي الأشجار والطيور ملابسَ جديدة مبدِّلا أنواطهما وشــاراتهما حتى إنه يبدل لباس الجبل ونقاب الصحراء مثلما يبدل فساتين الدجاج اللطيفة وأثواب الطيور الجميلة ويوزع جميع أرزاق الجيــش الهائل للأحياء، وفي مقدمتها الإنســان".

الجندية الكونية

إنــه كان يقيم من كل ذرة مــن ذرات هذا دلائل على التوحيد وعظمةِ الخالق وبديع صنعه وكريم عنايته بالإنســان ســيد هذا الوجود، وأن أسماءه الحسنى المقدسة تتجلى في هذا الكون، ويشرح ذلك بتطويل وتفصيل ويتحدى المادية والماديين ومذهبهم.

ويقول في بيان الحاكمية المطلقة: "إن من ينظر بنظرة واسعة فاحصة إلى الكون يرى أنه بمثابة مملكة مهيبة جدا في غاية الفعالية والعظمــة، وتظهر له كأن مدينة عظيمة تتم إدارتها إدارة حكيمة وذات ســلطنة وحاكمية في منتهى القــوة والهيبة، ويجد أن كل شــيء وكل نوع منهمكٌ ومسخر لوظيفة معينة، فالآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(الفتح:٤)، تشعر بمعاني الجندية في الموجودات التي تتمثل ابتداءً من جيوش الذرات وفرق النباتات، وأنواع الحيوانات إلى جيوش النجوم كل أولئك جنود ربانية مجندة لله، فنجد في جميع أولئك الموظفين الصغار جدا وفي جميع هؤلاء الجنود المعظمة جدا ســريانَ الأوامر التكوينية المهيمنة، وجريانَ الأحــكام النافذة وقوانينَ الملك القدوس ممــا يدل دلالة عميقة بالبداهة على وجود الحاكمية المطلقة والآمرية الواحدة الكلية".

وفي تفســير قوله تعالى ﴿فَسُــبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾(الروم:١٧) يقول: "إن عقارب الســاعة التي تَعُد الثواني والدقائق والســاعات والأيام كل منها يناظر الآخر ويمثل الآخر ويأخذ كل منها حكم الآخــر، كذلك في عالم الدنيا الذي هو ساعة إلهية كبرى، فإن دوران الليل والنهار الذي هو بحكم الثواني للســاعة والسنوات التي تعد الدقائق، وطبقات عمر الإنسان التي تعد الساعات، وأدوار عمر العالم التي تعد الأيام كل منها يناظر الآخــر ويماثله ويذكر كل منها الآخــر ويأخذ حكمه. ووقت الفجر إلى طلوع الشمس يشبه ويذكّر ببداية الربيع وأوله، وبأوان سقوط الإنسان في رحم الأم... وأما وقت الظهر فهو يشبه ويشير إلى منتصف الصيف وإلى عنفوان الشباب وإلى فترة خلق الإنسان في عمر الدنيا... وأما وقت العصر فهو يشــبه موســم الخريف وزمن الشيخوخة... وأما وقت المغرب فإنه يذكّر بغروب أغلب المخلوقات وأفولها نهاية الخريف ويذكّر أيضا بوفاة الإنســان... وأما وقت العشاء فيذكر بغشــيان عالم الظلام وستره آثارَ عالم النهار بكفنه الأسود... وأما وقت الليل فإنه يذكر بالشتاء وبالقبر وبعالم البرزخ فضلا على أنه يذكر روح الإنســان بمدى حاجتها إلى رحمــة الرحمن... وأما التهجــد في الليل فإنه يذكر بضرورة ضيــاء ليل القبر، وظلمات عالم الــبرزخ وينبه ويذكر بنعم غير متناهية للمنعم الحقيقي عبر هــذه الانقلابات، ويعلن عن مدى أهليــة المنعم الحقيقي للحمد والثنــاء... وأما الصباح الثاني فإنه يذكر بصباح الحشــر... نعم، كما أن مجيء الصباح لهذا الليل ومجيء الربيع لهذا الشــتاء معقول وضروري وحتمي، فإن مجئ صباح الحشر وربيع البرزخ هي بنفس القطعية والثبوت".

ويقول: "لقد أحصيتُ ذات يوم عناقيد ســاق نحيفة لعنب متســلق بغلظ أصبعين -تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال في بســتان كرمه- فكانت مائة وخمســين عنقودا، وأحصيت حبــات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشــرين. فتأملت وقلت: لو كانت الساق الهزيلة خزانة ماء معسل وكانت تعطي باســتمرار، لما كانت تكفي أمــام لفح الحرارة ما ترضعه لمئات الحبات المملوءة من شراب سكر الرحمة، والحال أنها قد لا تنال إلا رطوبة ضئيلة، فيلزم أن يكون القائم بهذا العمل قادرا عن كل شيء. فسبحان من تحير في صنعه العقول".

الطبيعة مطبعة مثالية لا طابعة

إن الطبيعة عند الإمام النورسي مطبعة مثالية وليست طابعة، هي نقش لا نقّاش، قابلة للانفعال لا فاعلة، مسطر لا مصدر، نِظام لا نظّام، قانون لا قدرة، شريعة فطرية لا حقيقة خارجية. وإن رؤيتها

غيرَ ذلك جُموحٌ ومادية، والفلسفة المادية طاعون معنوي، حيث سبّب في سريانِ حمىً مدهشةٍ في البشرية، وعرّضها للغضب الإلهي، وكلما توسعت قابلية التلقين والنقد توسع ذلك الطاعون أيضا.

أفكار جديدة لم يسبق إليها

إن الإمام النورسي قد فتح الله عليه بأفكار جديدة ورؤى سديدة لا يجدها الباحث عند سواه، و لم يسبقه إليها أحد ممن نحا منحاه؛ فمن ذلك إبرازه لحكمةِ وإعجازِ قَرن الأرض بالسماوات في القرآن الكريم إذ يقول: "إن الإنسان الذي هو ألطفُ ثمرة العالم، ومعجزة جامعة من معجزات القادر الحكيم وأبدعُ المخلوقات وأعزها وألطفها، مع أنه أعجزها وأضعفها، هذا الإنسان يعيش على هذه الأرض. فالأرض إذن مهد لهذا الإنسان -مع صغرها وحقارتها قياسا إلى السماوات- عظيمةٌ وجليلة من حيث المعنى والمغزى والإبداع، حتى أصبحت -بالمنظور القرآني- موضعَ تجلي الأسماء الحسنى كلها، حتى إنها البؤرة الجامعة لتلك الأنوار، ومحشر الأفعال الربانية المطلقة ومرآتها، وسُوق واسع لإبراز الخلاقية الإلهية المطلقة، ولاسيما إيجادها الكثرةَ الهائلة من النباتات والحيوانات الدقيقة بكل جود وكرم، ونموذج مصغر لمصنوعات عالم الآخرة الواسعِ الفسيح، ومصنع يعمل بسرعة قصوى لإنتاج منتوجات خالدة، وموضع عرض لنماذج المناظر السرمدية المتبدلة بسرعة فائقة، ومزرعة ضيقة مؤقتة لاستنبات بُذَيراتٍ تربى بسرعة للبساتين الخالدة الرائعة. لهذا كلّه يجعل القرآن الكريم الأرضَ صنوا للسماوات من حيث عظمتها معنىً وأهميتها صنعة، وكأنها ثمرة صغيرة لشجرة ضخمة، وكأنها قلب صغير لجسد ضخم فيذكُرها القرآن الكريم مقرونة بالسماوات، فهي في كفة والسماوات كلها في كفة، فيكرر الآية الكريمة ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(ص:٦٦)".

حول مفهوم الموت والعدم

ومن ذلك رؤيته أن الموت والاندثار الذي يصيب في الخريف مخلوقاتِ الربيع والصيف الجميلة ليست فناء نهائيا، وإعداما أبديا، وإنما هو إعفاء من وظائفها وتسريح منها، وهو إفساحُ مجال وتخلية مكان لما سياتي في الربيع الجديد من مخلوقات جديدة، فهو تهيؤ وتهيئة لما سيحل من الموجودات المأمورة الجديدة، وهو تنبيه رباني لذوي المشاعر الذين أنْستهم الغفلة مهامهم، ومنعهم السكر عن الشكر. والدنيا شجرة رائعة ترسل ثمارها إلى سُوق الآخرة.

لقد كان النورسي يرى تجدد الربيع -وهو في غربته وتأمله- أطباقَ كرم إلهي تأتي الإنسان بما فيه بقاؤه واستمراره. يقول في الشعاعات: "فما إن يحل الربيع حتى ترى الرحمة تزين الأشجار والنباتاتِ المثمرة وتُلبسها ثيابا خضراء كأنها حور الجنة، وتسلم إلى أيديها أنواعا مختلفة من ثمار شتى وتقدمها إلينا قائلة: "هاكم كلوا وتفكهوا" وتراها تطعمنا عسلا مصفى شافيا لذيذا تصنعه حشرة سامة، وتُلبسنا حريرا ناعما تنسجه حشرة بلايد، وتدخر في حفنة من بذيرات وحبوب آلافَ الأطنان من الغذاء وتُحوّلها إلى كنوز احتياطية لنا. انظر إلى قافلة مهيبة تنطلق من الغيب مقبلةً علينا، فهي قافلة تحمل صحون أرزاق الأحياء، قافلة النباتات في الربيع... ثم انظر إلى ذلك المصباح الوضيء المعلق في قبة المملكة فهي تنير الجميع وتنضج المأكولات بخيط دقيق والمعروضة أمامه بيد غيبية (إشارة إلى أغصان الأشجار وثمارها). ألا تلتفت معي إلى هذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة كيف يسيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص من مضخات متدلية فوق رؤوسها (الأثداء) وحسبها أن تلصق أفواهها بها".

إنه بعد أن تحدث طويلا وتفصيلا بتؤدة وتأن عن الكون والطبيعة في رسائله وكلماته وشعاعاته وغيرها كان يقول: "لذا فإن جميع الآثار والمخلوقات والمصنوعات في هذا الكون كله تدل بوجودها غير المحدود دلالة قاطعة على وجود أفعالِ خالقها وصانعها وفاعلها وعلى وجود أسمائه وعلى وجود أوصافه وعلى وجود شؤونه الذاتية وعلى وجوب وجود ذاته المقدسة ﷻ. يتجلى عنوان من عناوين اسم من الأسماء الحسنى في كل عالم من عوالم الكون وفي كل طائفة من طوائفه ويكون ذلك الاسم حاكما مهيمنا في تلك الدائرة، وبقية الأسماء تابعة له بل مندرجة فيه".

الإنسان الانسجامي

وإذا عرف الإنسان ربه بدلائل التوحيد وبديع الصنع، فما هي الغاية من ذلك؟ إن الإمام النورسي يأخذ بيد العارفين رويدا، فكما أقام لهم الأدلة من المادة والكون على الله تعالى وأسمائه وصفاته يدلف إلى ضرورة الانسجام مع تعاليم الخالق وأوامره ونواهيه. يقول رحمه الله: "الأمر في الشجرة المسماة بالكون التي تمثل العناصرُ أغصانَها، وما في نهايات تلك العناصر من أوراق وأزاهير تمثل النباتات والحيوانات، وما في قمم تلك الأغصان وفي ذروة تلك الأزاهير والأوراق من ثمرات تمثل الإنسان، فإن أجلّ نتائج سعي تلك الثمرات البديعة ونتيجة خلقته، هي العبودية لله وتقديمُ الشكر والحمدِ لله وحده، ولاسيما ما ينطلق من تلك

النــوى الجامعة لتلك الثمرات، تلك هي قلوب البشــر وقواهم الحافظة المسماة بظهر الغيب، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يدعها سبحانه لاغتصاب الأغيار فيهون من شأن عظمة ربوبيته وعزتها مخلا به معبوديته، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا".

ويخاطب الغافلين الســادرين بقوله: "يا هذا! ارفع رأســك وانظر إلى غرائب الصنعة وبدائع الخلقة للفعال القدير الذي يريد أن يعرّف نفسه لعباده، فكما أنك لست طليقا سائبا مفلت الزمام في هذا الوجود، فلن تكون هذه الحوادث سدى ولا عبثا، بل كل منها تشــتاق إلى وظائف حكيمة بخضوع واستسلام، وكل منها يُستخدم من لدن رب حكيم".

الأسباب ليست إلا ستائر

إنــه ينعى على الماديــين الذين ركنوا إلى المــادة وتوجهوا إليها بإجلال وعبادة فيقول: "أيها الغافل الغارق في عبادة الأســباب! اعلم أن الأسباب ليســت إلا ستائر أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيــان الحجاب، أما الفاعل الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال".

لقــد أقام الدلائل من الموجــودات على أن هذه الموجودات -غير الإنس والجن- خاضعة مسبحة لله تعالى لا تخرج عن أمره وإرادته، فلهذا يرى أن هــذا العاقل خلاصة الكون يجب أن لا يكون أقل من باقي المخلوقات طاعة وخضوعا وشكرا وعبادة لله، ولهذا خلق الجن والإنس ليجعلوا الأرض مسجدا ومكانا للتهليل والتقديــس في كل حركة من حركاتهم وتصرف من تصرفاتهم.

يقول رحمه الله: "يا رب الأنبياء والصديقين! إن أولئك جميعا مســخرون وموظفون في ملكك أنت، وبأمرك وقدرتك أنت، وبإرادتك وتدبيرك أنت، وبعلمك وبحكمتك أنت، وقد أظهروا الكرة الأرضية بالتقديس والتسبيح والتكبير والتحميد والتهليل في حُكم أعظم مكان لذلك، وأبرزوا الكون في حكم أكبر مسجد للعبادة".

ويعرّض بالجاحدين الملحدين، وأن الإنسان خلق لغاية سامية وحكمة عالية فيقول: "فيا نفســي الغافلة! إن كنت تريدين أن تفهمي شيئا من غاية حياتك فإن مجملها تسعة أمور:

أولها: القيام بالشــكر الكلي، ووزنُ النعم المدخرة في خزائن الرحمة الإلهية بموازين الحواس المغروزة في جسمك.

ثانيها: فتح الكنوز المخفية للأسماء الحســنى بمفاتيح الأجهزة المودعة في فطرتك، ومعرفة الله جل وعلا بتلك الأسماء الحسنى.

ثالثهــا: إعلان ما رَكبت فيك الأسماءُ الحســنى من لطائف وتجليات وبدائع صنع، وإظهارُها أمام المخلوقات بعلم وشعور.

رابعها: إظهار عبوديتك أمام عظمة ربوبية خالقك بلســان الحال والمقال..." إلى أن يقول: "تاسعها: إدراك درجات القدرة الإلهية والثــروة الربانية المطلقتين بموازين العجز والضعف والفقر والحاجة المنطوية في نفسك...". ويطيل الحديث في ذلك رحمه الله.

وأختم بنظراته للحياة الدنيا وعلاقة الإنسان بها وقد كررها في عديد من مكتوباته: "... واعلم أنها دار ضيافة وأنت فيها ضيف مكرم، فكلْ واشرب بإذن صاحب الضيافة والكرم، وقدّم له الشكر ولا تتحرك إلا وفق أوامره وحدوده، وارحل عنها دون أن تلتفت إلى ما وراءك، وإياك أن تتدخل بفضولٍ بأمور لا تعود عليك ولا تفيدك بشــيء، فلا تغرق نفسك بشؤونها العابرة التي تفارقك".

وختاما فقد كان الإمام النورسي رحمه الله متفاعلا مع الكون بكل أبعاده، متأثرا شــديد التأثر بمظاهــره وأحيائه، يرى المنظر فيترك في فكره ونفسه أعظمَ الأثر.

وكانت شدة التأثر للكون والطبيعة تريه يد القدرة الإلهية في كل شيء، وجمالُ الوجود يُظهر له حكمةَ الخالق وجماله وجلاله في كل شيء، فجَعَل الكونَ والطبيعة شهبَ أدلةٍ للملحدين وأنوارَ هداية للراغبين، فكان في هذا الباب مجدِّدا فذا، وإماما متميزا رائدا يقــود الظامئين لتحقيق العبودية بين يدي رب العالمين، وإن أدلة التوحيد التي ســاقها حَرِيَّة بالدرس والبحث، لأنها لا تزال بنت عصرنا وحاجة دهرنا، فرحمه الله رحمة واسعة في جنان الخلد مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ■

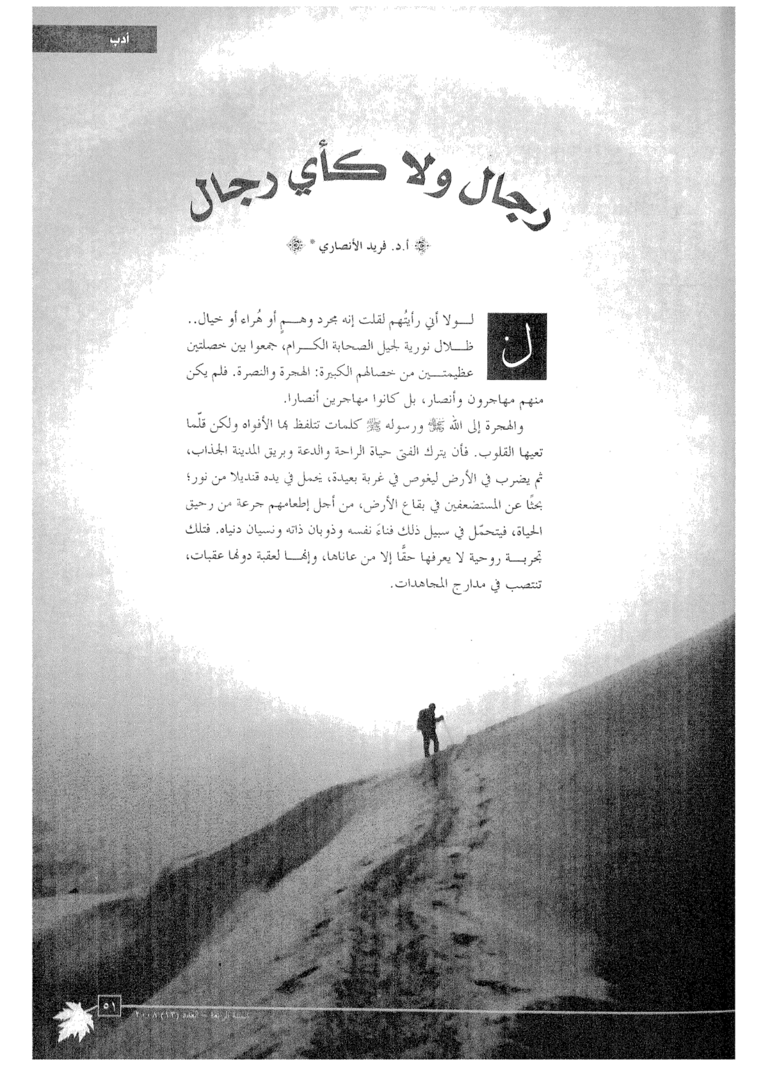
(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الرباط / المغرب.

المصادر

(1) الكلمات، لبديع الزمان ســعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(2) المكتوبات، لبديع الزمان ســعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(3) الشــعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر للنشر، القاهرة، ٢٠٠٣م.



رجال ولا كأي رجال

أ.د. فريد الأنصاري *

لـــولا أني رأيتُهم لقلت إنه مجرد وهـــمٍ أو هُراء أو خيال.. ظـــلال نورية لجيل الصحابة الكـــرام، جمعوا بين خصلتين عظيمتـــين من خصالهم الكبيرة: الهجرة والنصرة. فلم يكن منهم مهاجرون وأنصار، بل كانوا مهاجرين أنصارا.

والهجرة إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ كلمات تتلفظ بها الأفواه ولكن قلّما تعيها القلوب. فأن يترك الفتى حياة الراحة والدعة وبريق المدينة الجذاب، ثم يضرب في الأرض ليغوص في غربة بعيدة، يحمل في يده قنديلا من نور؛ بحثًا عن المستضعفين في بقاع الأرض، من أجل إطعامهم جرعة من رحيق الحياة، فيتحمّل في سبيل ذلك فناءَ نفسه وذوبان ذاته ونسيان دنياه. فتلك تجربـــة روحية لا يعرفها حقًّا إلا من عاناها، وإنهـــا لعقبة دونها عقبات، تنتصب في مدارج المجاهدات.

من بلاد الأناضول تشرق شمسهم، ثم تتدفق أشعتها نحو كل العالم خيوطا بلورية وهّاجة، تصل الأرحام القديمة وتذكي الحنين الجريح.. مهاجرون تركوا خلفهم كل شيء وانطلقوا كالخيول العارية، يفتحون الأبواب والنوافذ للمحاصَرين في كل بقاع الأرض، ويعلّموهم كيف يستنشقون من جديد هواء الفضاء الفسيح، بعدما فقدوا إحساسهم بالحياة منذ قرون.

مهاجرون، هجروا هذا الذي تذل له القلوب الميتة: متاع الحياة الدنيا وزينتها، رغم تدفقه عليهم من كل الجهات، وانطلقوا سائرين إلى الله، يوزّعون كلمات النور ويبشرون العالم بالأمن والسلام ويبعثون في قلوب الفقراء الأمل العظيم. كانت جحافلهم تتفرق بين الصحارى والجبال والأدغال والمحيطات... وقد تَكْبُو فرَسٌ هنا أو هناك، ولكن الطليعة أبدا تصل إلى غايتها، وترفع راية النور فوق أعالي القمم الشامخة، فيشمخ الدين بهم ويعتزّ..

ظلال من جيل الصحابة أو نُسخ أخرى لستُ أدري.. ولقد رأيتهم وما كذبت عيني. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدّلوا تبديلا.. فلله درّهم.. أيّ رجال هم!؟

أنصار.. فلقد نَصروا الخير فكانوا أنصار العصر الجديد.. كلما رأوْا شمعةَ نور تضطرب في عاصفة الريح في أي بقعة من العالم، أسرعوا إليها غير مبالين بالصعاب واحتضنوها بمشكاة من زجاج بلوريّ، فتصير كأنها كوكب درّي، ينبُض بالجمال والبهاء..

جاعوا ليأكل غيرهم، وعَرُوا ليلبس فقراؤهم، وعَدِمُوا ليملك مستضعفوهم، وبكوا ليضحك إخوانهم... فكانوا حقًّا يوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

أنصار.. اقتبسوا نصرتَهم استمدادا من نور المدينة المنورة، بُعَيد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إليها مباشرة، ولمّا يزل فرحُ أهل يثرب جديدا يتفجّر طربا.. من هناك أخذوا حقيقة نصرتهم، نديّة طريّة كغُصنٍ رطيب، يَنثر النّدى والثمارَ اللذيذة.

هاجروا ونصروا، فأعطوا من ذاتهم لسفار الهجرة، وأعطوا من ذاتهم لدافة النصرة، فما بقي لهم في هذه الأرض من شيء! ولكنهم في عالم الروح يملكون كل شيء، استنادا إلى لله الغنيّ الحميد.

مجانين.. يعشقون الخدمة اغترابا، من قَرّ "سبريا" إلى حَرّ جنوب إفريقيا.. ولا تركوا جزيرة أو مغارة أو سهلا أو جبلا من كل قارّات العالم إلا دخلوه، ووزّعوا فيه شُعاعات الصبح القريب.. يبتسمون للَسع الآلام، ويسعدون بعبور حقول الشوك الجارح فتسيل الدماء من أقدامهم، وتسيل الدموع من عيونهم، والقلب مسرور بالله!..

رجال.. لو تحدث عنهم كتاب قديم، لقلنا إنها مبالغة من مبالغات كتب القصص والطبقات والمناقب.. لكنهم يعيشون "الآن" في الحاضر والمستقبل، فهاهم أولاء أمامك نماذج حية من الشوق الملتهب والفاعلية العظيمة.. فأكرِمْ بهم وأنعِمْ من شباب وكهول.. أحيَوْا فينا أمل الحياة، ومدّونا بيقين الشروق الجديد.. فكانوا مِصداقا لكلمات النبوة، في أنّ الله سينصر هذا الدين نصرا عالَميًّا، حتى لا يبقى بيتُ وَبَرٍ ولا مدَر إلا دخله بعز عزيز أو ذل ذليل..

ولقد رأيتُ أنوار الأسماء الحسنى تنعكس على عيونهم، وتتدفق من بين أيديهم.. فيتبعون هُداها منجذبين بقوتها إلى تحقيق قدر الله العظيم، في إحياء الأرض بعد موتها بالغنى والكرم والجود. ترى الواحد منهم أمّة في رجل أو رجلا في أمة.. قد تنبهر إذ تقع عيناك على أي طيف منهم فتقول: "وَيْ كأن ليس له مثيل"، فإذا رأيتَ الآخر أنساك جمالُه بهاءَ الأول. جمعوا أخلاق الخير والفضيلة كلها. نظرة واحدة فيهم تغنيك عن قراءة كتب الفلسفة والأخلاق وخيالات المدينة الفاضلة. فهؤلاء لا يتكلمون عن الأخلاق، بل هم الأخلاق نفسها تمشي على الأرض، في زمن صار الخلق الكريم فيه قطعة مهملة في متحف التاريخ.

هل تريد أن تكون منهم؟.. فكّرْ، فكّر! قبل أن تقول "نعم".. فإنما هي كلمة تقولها، وإنها لدعوى عريضة، دونها اقتحام العقبة.. وما أدراك ما العقبة؟! أن تبيع نفسك لله كاملة، فلا يبقى منك لك شيء، أيّ شيء.. تستسلم لمراد الله حيث ما سارت بك مقاديره، حتى تُدفن بذرتك في أيّ نقطة من العالم، بعيدا بعيدا عن وطن الأنس والأهل والأحباب.. زادك الوحيد، وغذاؤك الفريد "ذكر الله" و"الاستمداد من نوره العظيم".

أن تكون منهم معناه أن ينساك الناس كلهم، ويذكرك الله وحده، وأن تخرج من الدنيا وأنت ما تزال حيًّا تعيش فيها، تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، فلا ترى في نفسك ولا لنفسك شيئًا.. وترى أقرانك من معارفك القريبين، ممن تضخّمت عندهم ذواتهم، ولم يستطيعوا أن يتخلصوا من أغلال التراب، ولا أن يُفْلتوا من شباك الأسباب، يرتقون في درجات الوهم الدنيوي، فيُطلّون عليك من أبراجهم العالية، بما يملكون من مناصب وألقاب! وأنت تمشي على التراب حافي القدمين، فقيرا من كل شيء، إلا من مدد الله العظيم.. ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٢٠).

أتريد أن تكون منهم؟.. "نعم"، تلك كلمة سهلة النطق، لكنها تجربة مريرة.. ومَن قال: "إن النار ليست لها خاصية الإحراق"، فليَمُدَّ إليها يدَه.. فهل أنت مستعد لأن تحترق حتى يصير جسمك رمادا؟ فتذروه الرياح في كل قارات العالم، ذرّاتٍ متناثرة هنا وهناك، ما سقطت منها واحدة على تربة قاحلة إلا جعلَتها تخضرّ، وتُنْبِت من كل زوج بهيج..

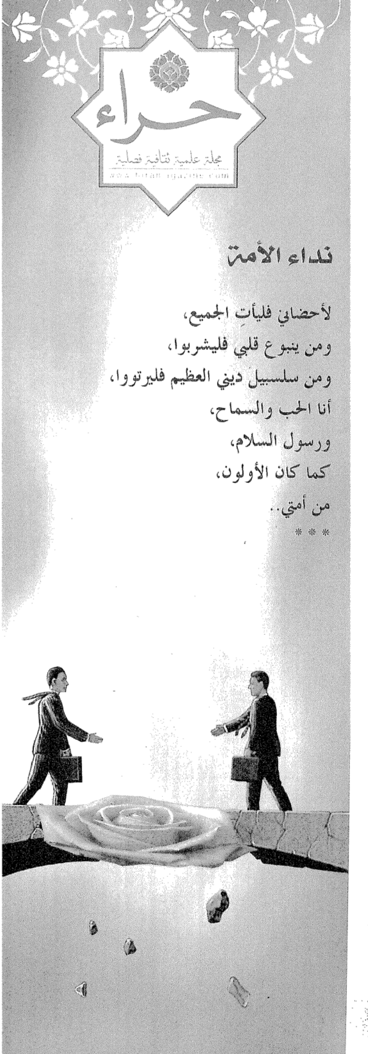
هؤلاء هم عماليق العصر، ونماذج الإنسان الحق الذي ينتظره العالم منذ زمان بعيد.. فهل آن الأوان لتستعيد الأرضُ أمانها الذي أودعه فيها سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟!.

حاصَروا ظُلْمَ البنادق المتارس بالمعاهد والمدارس، وأطفؤوا نيران الفتن والحروب بالكلمات والحروف.. فكل مدرسةٍ يَبنونها هنا أو هناك تغدوا شجرةً خضراء، ما تزال تفرّخ حولها فسائل منها تَنمو ثم تنمو، حتى تصير البلاد أشجارا وأشجارا، فإذا بغابة الخير تَخنُق صوتَ الرصاص البغيض، وتقضي على رائحة البارود النتة..

معلّمون.. انتشروا في كل مكان، يعلّمون أطفال العالم منطق الطير وتراتيل العصافير، ويرسمون على السبّورات الخضراء أمامهم أحلامَ الغد الجميل ومعالم الطريق إلى الجنة. فللطفولة المتخرّجة من بين أحضانهم -عَبر كل قارّات الأرض- نشيد واحد، يبشر الأمة بالخير والسلام..

ملائكةُ الذكر تحبُّهم، فلطالما استمعت إلى أهازيجهم الشجيّة.. وملائكة العلم تعرفهم، فلطالما حملت بأجنحتها طلائعهم، وهي تضرب في الأرض نحو غابات أسطرالْيا أو صحارى آسيا أو أدغال إفريقيا أو نحو ضباب الغرب البعيد.. ليطلقوا شعاع النور من فوق ناطحات السحاب.. معلّمون عُزّل، إلا من سلاح التربية والتعليم! يغامرون باقتحام المخاطر في كل مكان، فيرحلون بصدورٍ عارية، ووجوه تبتسم أمام فُوّهات الموت! ولربّما خرقت بعضَها رصاصةُ غدرٍ أو نائبةُ دهرٍ، فلا يرجعون القهقرى أبدا!..

سادتي!.. أنتم المجاهدون حقّا، فعليكم من الله السلام. ■

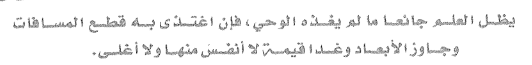


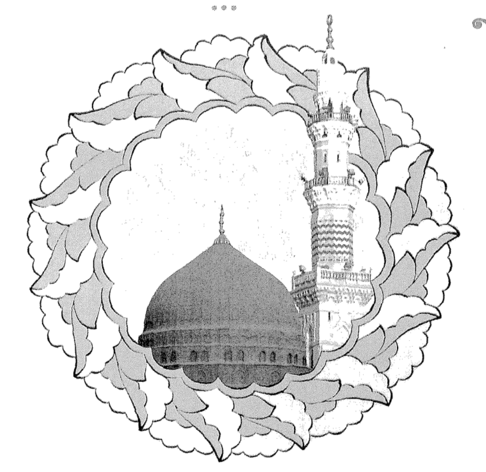
نداء الأمة

لأحضاني فليأتِ الجميع،
ومن ينبوع قلبي فليشربوا،
ومن سلسبيل ديني العظيم فليرتووا،
أنا الحب والسماح،
ورسول السلام،
كما كان الأولون،
من أمتي..

* * *

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بـ"مكناس" / المغرب.





المنهاج النبوي

في المداعبة والمزاح

أ.د. محمد عمارة

1 الإسلام دين الوسطية، ولقد شاء الله ﷻ أن تكون هذه الوسطية "جَعْلاً إلهيّا"، وليس مجرد خيار من خيارات المؤمنين بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣). ونحن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة قد جعلت الوسطية علة وسببا يترتب عليه اتخاذ الأمة الإسلامية موقع "الشهود" على العالمين، بما في هذا العالمين من أمم وشعوب وملل ورسالات وثقافات وحضارات.. وذلك التعليل وثيق الصلة بمعنى "الوسطية" ومعنى "الشهود".. فالوسط -كما علمنا رسول الله ﷺ- هو العدل. والعدل هو الشرط المؤهل للشهادة والشهود على العالمين. ولأن هذه الأمة الخاتمة قد آمنت بكل النبوات والرسالات والكتب السماوية، كانت وحدها المؤهلة عدالتُها بالشهادة على العالمين، بما في ذلك الشهادة على تبليغ كل الرسل رسالاتهم إلى أمم هذه الرسالات.

تحديد المصطلحات والمفاهيم

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أنه "لا مُشاحّة في الألفاظ والمصطلحات"، فإن انتفاء هذه "المشاحة" واقف فقط عند استخدام هذه الألفاظ وهذه المصطلحات، أما المضامين والمفاهيم المقصودة من وراء استخدام هذه المصطلحات فإن فيها الكثير والكثير جدا من المشاحات، وخاصة عندما تتعدد -وأحيانا تتناقض- المفاهيم المرادة من وراء المصطلح الواحد؛ بسبب تعدد الثقافات والحضارات والفلسفات والمواريث.

فمصطلح "الدين"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب، لكن مفهومه ومضمونه عند أهل "الديانات الوضعية" غيُره عند أهل الديانات السماوية. ومفهومه ومضمونه في الفلسفات المادية يعني: الإفراز الخرافي والأسطوري للعقل الإنساني في مرحلة الطفولة من تطور الإنسان؛ بينما يعني "الدِّين" في النسق الرباني: الوضع الإلهي الذي نزل به الوحي الأمين على الأنبياء والمرسلين، لسَوْق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الهداية والخير في الدينا والآخرة.

ومصطلح "السياسة"، تستخدمه وتردده كل الأمم والشعوب والثقافات، لكنه يعني في الحضارة الوضعية الغربية: فن الممكن من الواقع تحقيقاً للقوة، وذلك بصرف النظر عن علاقة هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق؛ بينما يضبط النسق الإسلامي -في فلسفة السياسة- هذه التدابير السياسية بالقيم والأخلاق. فالسياسة -في هذا النسق- هي "التدابير التي يكون الناس معها أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد". وفارق جوهري بين هذا المفهوم للسياسة، وبين مفهومها وفلسفتها الغربية عند "ميكيافيللي"، ذلك الذي شاع في فلسفة السياسة بالحضارة الوضعية الغربية ولا يزال شائعا وحاكما حتى هذه اللحظات.

"والإقطاع"، مصطلح تردده كل الأمم والشعوب، لكنه يعني في الحضارة الغربية: ملكية الأرض ومن وما عليها؛ بينما هو في النسق الإسلامي: تمليك منفعة، لإحياء الأرض الموات، واستثمارها والانتفاع بها، وفق الضوابط التي وضعها -في الشريعة- مالك الرقبة في كل الأموال والثروات ﷻ.

مع مصطلح الوسطية

وكذلك الحال مع مصطلح "الوسطية"، الذي يعني -في "الفكر السُّوقي"- التَّميُّع وانعدام التحديد، وافتقار الموقف "الوسطي" إلى اللون والطعم والرائحة! والذي يعني في الفكر الأرسطي وفلسفة "أرسطو": الفضيلة بين رذيلتين، أي الموقف الثالث الذي هو بمثابة نقطة رياضية ثابتة بين قطبين، مع المغايرة الكاملة بين هذا الموقف الثالث (الوسطي) وبين هذين القطبين. ولكن المفهوم الإسلامي للوسطية ليس كذلك، فهي وسطية جامعة، تمثل موقفا ثالثا بين القطبين المتقابلين والمتناقضين، لكنها لا تغاير هذين القطبين مغايرة تامة، وإنما هي تَجمع منهما عناصرَ الحق والعدل لتكوِّن منها وبها هذا الموقف الوسطي الجديد. فهي في حقيقتها رفض للغلو الذي ينحاز إلى قطب واحد من هذين القطبين (غلو الإفراط أو غلو التفريط).

فوسطية الإسلام الرافضة للغلو المادي والغلو الروحي هي وسطية لا تغير المادة والمادية ولا الروح والروحانية كلية، وإنما هي الوسطية الجامعة لعناصر الحق والعدل من المادية والروحانية جميعا، على النحو الذي يوازن توازن العدل بينهما. ولذلك فإنها (هذه الوسطية الإسلامية الجامعة) تصوغ الإنسان الوسط: راهب الليل وفارس النهار، الجامع بين الفردية والجماعية، بين الدنيا والآخرة، بين التبتل للخالق والاستمتاع بطيبات وجماليات الحياة التي خلقها الله وسخرها لهذا الإنسان.

الرسول القدوة

ولأن النموذج والقدوة والأسوة تنهض بالدور الأول في ميدان التربية والتزكية والصياغة للإنسان والمجتمع والثقافة والحضارة، فلقد شاء الله ﷻ أن تكون القدوة والأسوة للأمة الوسط ذلك النبي الأمي الذي جسدت حياته أكمل نموذج لوسطية إسلامية جامعة يمكن أن يتحقق في دنيا الناس. لقد صنعه الله على عينه ليكون نموذج هذه الوسطية الإسلامية وقدوتها وأسوتها. فهو بشَر يوحَى إليه، بشر تجوز عليه كل عوارض البشرية، يولد ويمرض ويألم ويموت. وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق. ولا يأتي من الخوارق إلا ما آتاه الله. وفي ذات الوقت -ولأنه يوحى إليه- فلقد مثَّل رباط وارتباط الأرض بالسماء، وحلقة الوصل بين عالم الشهادة وعالم الغيب. وبعبارة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: "فإن روحه ﷺ ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية. فهو يشرف على الغيب بإذن الله، ويعلم ما سيكون من شأن الناس فيه، وهو في مرتبته العُلوية على نسبة من العالمين، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهو في الدنيا كأنه ليس من أهلها، وهو وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها. يتلقى من أمر الله ويحدِّث عن جلاله بما خفي عن

العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه. معبرا عنه بما تحمله طاقة عقولهم ولا يعد عن متناول أفهامهم. ثم هو بعد ذلك بشر يعتريه ما يعتري سائر أفراد البشر"، مما لا يقدح في مقتضيات رسالته.

لقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، فكان على خلق عظيم، وجمعت حياته وسياساته بين الاجتهاد الإنساني وبين الوحي المسدِّد للاجتهاد، والحاكم فيما لا يستقل به الاجتهاد. هو ﷺ العابد المتبتّل الذي يقف بين يدي مولاه حتى تتورم قدماه. وهو الذي جعل رهبانيته ورهبانية أمته الجهاد في سبيل الله، حتى لقد كان الفارس المقاتل الذي يحتمي به الفرسان إذا اشتد القتال وازداد البأس وحمي الوطيس واحمرت الحدق، فلا يكون أحد أقرب إلى الأعداء منه عليه الصلاة والسلام. ومع ذلك كان أشد حياء من العذراء في خدرها، ولقد جعل الحياء في شريعته شعبة من شعب الإيمان. كان أشجع الناس وأحلم الناس، كانت عبادته مجاهدة وجهادا، وكان جهاده عبادة وتقربا إلى الله.

وفي قدوته وأسوته جمعت الوسطية بين قوة الصبر والمصابرة وبين ذروة الخشوع والخضوع في الصلاة ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(البقرة:٤٥).

وكذلك جمعت قدوته وأسوته بين الرفق الرفيق بالإنسان -مطلق الإنسان- والحيوان والنبات والبيئة -بما في ذلك الجماد- لأنها جميعها حية تسبح بحمد خالقها -حتى وإن لم نفقه تسبيحها-، وبين الغضب الشديد لدين الله وحرمات الله وحدود الله. كما جمعت قدوته وأسوته بين زهد الغَنِيّ في متاع الدنيا وبين عشق الجمال الذي خلقه الله وبثه زينة في هذا الكون الجميل. فكانت وصاياه باختيار الاسم الحسن والاستمتاع باللهو الحلال والاستعاذة بالله -في دعاء السفر- من كآبة المنظر، ودعائه ربه في صلاة الاستسقاء: "اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها" (رواه الطبراني في الأوسط). كما جمعت وسطيته بين تفضيل الحياة مع المساكين -لا الملوك الجبارين والمترفين- وبين الرقة والزينة، حتى لقد جاء في صفاته وشمائله أنه "لم تكن يد ألين من يده ولا ريح أطيب من ريحه أطيب رائحة من المسك. فكان وجهه يبرق من السرور. وكأن عرقه اللؤلؤ" (رواه الإمام احمد). كما جمعت وسطيته بين تبتل العابد عندما يعتكف بالمسجد وبين الزينة حتى أثناء الاعتكاف، فكان يناول رأسه لعائشة رضي الله عنها وهي في حجرها لترجّل له شعره، عليه الصلاة والسلام.

وهكذا جسدت القدوة والأسوة النبوية بهذه الوسطية الإسلامية الجامعة نموذج الإنسان الكامل الذي امتاز وتميز عن غلو الإفراط والتفريط.

وهذا النبي الأميّ الذي نهض لتغيير العالم في شؤون الدين والدنيا، وتقدم لتحويل مجرى التاريخ، ومفهوم الثقافة والحضارة، ومعنى إنسانية الإنسان. والذي كابد ما كابد -ثلاثة عشر عاما في المرحلة المكية- وبنى الدولة وبلور الأمة وقاد من الغزوات والسرايا والبعوث ما زاد على الستين -في تسع سنوات من المرحلة المدنية-، هو الذي جمعت وسطيته بين هذه المجالدة والمكابدة وبين الترويح عن النفس لتجديد ملكات وطاقات هذه النفس؛ كي تستطيع النهوض بتبعات المجالدة والمكابدة والمجاهدة، وكي تستمتع بما خلق الله في هذه الحياة من ألوان الجمال وعوامل المتاع والاستمتاع.

حول مفهوم الملحة والطرفة والنكتة والمزح

وبين يدي هذه الإشارات واللمحات عن هذا الجانب من سيرة المصطفى ﷺ لابد من تحديد المعاني والمفاهيم لمصطلحات "المُلحة" و"الطرفة" و"النُّكتة" و"المزح" في اصطلاح العربية وثقافة الإسلام.

فالمُلْحَةُ: هي القول والفعل الذي فيه ظُرف. وفي أساس البلاغة: ".. ومن المجاز: وجه مليح، ووجوه ملاح، وما أملح وجهه وفعله، وما أُمَيْلِحَه، وله حركات مستملَحة. وحدثتُهُ بالمُلَح. وفلان يتظرف ويتملّح". وفي لسان العرب: "عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: "الصادق يعطى ثلاث خصال: المُلحة، والمهابة، والمحبة". فالمُلحة: هي القول أو الفعل أو الحركات الظريفة التي تُكْسِب الحديث أو الموقف مُلحة وظُرفاً. وهو قصد زائد على الضروري من الأقوال والأفعال. والوسط فيها هو المحمود؛ لأنه بمثابة الملح للطعام؛ وسطه مفيد والإسراف فيه مفسد لأصل الطعام.

والطُّرفة -وجمعها الطُّرَف- هي المُستحدَث المُعْجِب المُتْحِف، وكل شيء استحدثتَه فأعجبك. فهي القول أو الحركة أو الفعل الظريف الذي يضيف إلى المعنى ما يُعجب ويسر نفوس السامعين والمشاهدين.

والنُّكْتَة -وجمعها نُكت ونِكات- في معناها اللغوي: هي النقطة البيضاء في السواد أو النقطة السوداء في البياض. ومن معانيها: المسألة الدقيقة التي أُخرجت بدقة نظر وإمعانِ فكر.

وهي في المجاز: المعنى غير المألوف والجملة اللطيفة، تؤثر في النفس انبساطا. ونُكتُ الكلام أسراره ولطائفه.

والمَزْح: هو الدعابة. ونقيض الجد. والمُزَّاح من الناس: هم الخارجون من طبع الثُّقلاء والمتميزون من طبع البُغَضَاء. فالمزاح هو تلوين الكلام أو الحركات بالدعابة التي تُكسبه ظُرْفاً يُخرجه عن صرامة الثقلاء وجفاف البُغَضاء. هذا عن التعريف بمضامين ومفاهيم هذه المصطلحات.

الإنسان الكامل

ولأن رسول الله ﷺ كان النموذج الأعظم للإنسان الكامل الذي تكاملت في صفاته وشمائله وأفعاله الوسطيةُ الجامعة والتوازن العدل، فإن حياته وأسوته وقدوته لم تخلُ من المُلح والطرائف والنكات التي نهضت بمهام الترويح عن النفس وتجديد ملكات وطاقات القلوب، والإعانة على جد الحياة وصعابها مع التزام الحق والصدق والعدل أي الوسط والوسطية المتميزة عن الغلو إفراطا كان أو تفريطا.

إننا نطالع في السنة النبوية: أن رسول الله ﷺ كان يمزح أي يداعب أصحابه رجالا ونساءً ولكنه لا يقول إلا حقا. حتى لقد قال له صحابته ﷺ: يا رسول الله، إنك تداعبنا! فقال: "إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقا" (رواه الترمذي والإمام أحمد). وفي صفاته وشمائله -من حديث علي بن أبي طالب ﷺ-: "كان رسول الله ﷺ دائم البشر، سهل الخُلق، ليّن الجانب" (رواه البيهقي). ومن حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ﷺ: ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ" (رواه الترمذي).

وكان ﷺ يرى اللعب المباح ولا يكرهه. ولقد أفسح لفرقة من الأحباش تلعب وترقص -تَزْفِن- وتغني بمسجد المدينة، وسأل زوجه عائشة رضي الله عنها إن كانت تشتهي أن تشاهدهم وتستمتع بألعابهم ورقصاتهم وأغنياتهم، فوقفت خلفه وخدها على خده [في منظر إنساني رقيق] حتى اكتفت وانصرفت عنهم. وعندما دخل عمر بن الخطاب ﷺ المسجد وهمّ بنهر الأحباش، أوقفه رسول الله ﷺ وشجّع الأحباش على مواصلة اللعب قائلا: "دونكم بني أرفدة، لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وأني أُرسلت بحنيفية سمحة" (رواه مسلم). ومن حديث جابر بن سمرة ﷺ: أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم، ولا يزجرهم إلا عن حرام (رواه مسلم). ومن حديث عبد الله بن مسعود ﷺ: ولربما ضحك ﷺ حتى تبدو نواجذه (متفق عليه). ومن حديث كعب بن مالك ﷺ: كان ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر (متفق عليه). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان من أفكه الناس مع نسائه (رواه ابن أبي شيبة).

ولقد روت عائشة رضي الله عنها فقالت: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة، فصنعتُ حريرة (عصيدة، تصنع من الدقيق واللبن والدسم) وجئت به، فقلت لسودة: "كلي". فقالت: "لا أُحب". فقلتُ: "والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك". فقالت: "ما أنا بذائقته". فأخذتُ بيدي من الصحفة شيئا منه فلطّختُ به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فخفض رسول الله ركبتيه لتستقيد مني، فتناولتْ من الصحفة شيئا، فمسحتْ به وجهي، وجعل رسول الله يضحك" (رواه أبو يعلى).

وعن عائشة رضي الله عنها: سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلما حملتُ اللحم سابقني فسبقني، وقال "هذه بتلك" (رواه أبو داود). وعن أبي هريرة ﷺ: أن الضحاك بن سفيان الكلابي كان رجلا دميما قبيحا، فلما بايعه النبي ﷺ قال: إن عندي امرأتين أحسن من هذه الحميراء -وكانت عائشة حاضرة، قبل أن تنزل آية الحجاب- أفلا أنزل لك -يا رسول الله- عن إحداهما فتتزوجها؟ فقالت عائشة: أهي أحسن أم أنت؟!. فقال: بل أنا أحسن منها وأكرم. فضحك رسول الله ﷺ من سؤالها إياه -لأنه كان دميما- (رواه الدارقطني).

صور من مزاحه ﷺ

عن الحسن ﷺ: أتت عجوز إلى النبي ﷺ فسألته أن يدعو الله لها بالجنة، فقال: "لا يدخل الجنة عجوز". فبكت، فقال: "إنك لست بعجوز يومئذ"، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۞ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾(الواقعة: ٣٥-٣٧)" (رواه الترمذي).

وعن زيد بن أسلم ﷺ قال: إن امرأة يقال لها أم أيمن، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك. فقال لها: "من هو؟ أهو الذي في عينه بياض؟" قالت: والله ما بعينه بياض. فقال: "بلى، إن بعينه بياضا". قالت: لا، والله. فقال: "ما من أحد إلا وبعينه بياض" (ذكره الزبير بن بكار). وعن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا استحمل رسول الله ﷺ فقال: "إني حاملك على ولد الناقة". فقال: يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة فقال رسول الله ﷺ: "وهل تلد الإبل إلا النوق" (رواه الترمذي). ومن حديث أنس بن مالك ﷺ: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عمير، وكان رسول الله ﷺ يأتيهم ويقول: "يا أبا عمير، ما فعل النُّغَيْر؟"، -والنُّغَيْر: فرخ العصفور، كان يلعب به الغلام-. (متفق عليه).

ومن رواية زيد بن أسلم ﷺ، عن خوات بن جبير الأنصاري، أن خوات كان جالسا إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال: "يا أبا عبد الله، ما لك مع النسوة؟!". فقال: يفتلن ضفيرا لجمل لي شرود. قال: فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشرّاد بعد؟!" قال: فسكتُّ واستحييتُ. وكنتُ بعد ذلك أتفرّرُ منه كلما رأيته حياء منه، حتى قدمتُ المدينة، فرآني في المسجد يوما أصلي، فجلس إليّ فطوّلتُ، فقال: "لا تُطوّل، فإني أنتظرك".. فلما سلّمتُ قال: "يا أبا عبد الله، أما ترك ذلك الجمل الشّراك بعد؟!". فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت. فقال: "الله أكبر، الله أكبر، اللهم اهد أبا عبد الله". قال -الراوي- فحسن إسلامه وهداه الله" (رواه الطبراني).

وروي أن نعيمان الأنصاري ﷺ كان رجلا مزّاحا، وكان لا يدخل المدينة رسل ولا طُرفة إلا اشترى منها، ثم أتى بها إلى النبي ﷺ فيقول: يا رسول الله، هذا قد اشتريته لك، وأهديته لك. فإذا جاء صاحبها يتقاضاه الثمن، جاء له إلى النبي، وقال: يا رسول الله، أعطه ثمن متاعه. فيقول له الرسول ﷺ: "ألم تهده لنا؟!". فيقول: يا رسول الله، إنه لم يكن عندي ثمنه، وأحببت أن تأكل منه. فيضحك النبي ﷺ ويأمر لصاحبه بثمنه" (ذكره الزبير بن بكار وابن عبد البر). وعن أبي هريرة ﷺ أن الأقرع بن حابس ﷺ أبصر رسول الله ﷺ يلاعب ويداعب الحسن بن علي رضي الله عنهما فيريه لسانه ويقبله، فكأنما استغرب الأقرع بن حابس ذلك من رسول الله ﷺ فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحداً منهن، فقال ﷺ: "من لا يرحم لا يُرحم" (رواه مسلم).

تلك نماذج وإشارات من سيرة المصطفى ﷺ وصفاته وشمائله، ومن سنته القولية والفعلية مع أهله، ومع صحابته -من الرجال والنساء- شاهدة على البعد الأصيل في المنهاج النبوي، والذي يجهله أو يتجاهله الكثيرون، وذلك عندما يحسبون الإسلام خشونة وتجهما، وعندما يريدون من النموذج الإسلامي ومن رجالات العلم الديني أن يكونوا نماذج للصرامة والتخويف، غافلين -أو متغافلين- عن الصورة القرآنية لنموذج القدوة والأسوة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩)، بل وحتى مع الأعداء، أمر الله ﷺ صاحب الخلق العظيم برفق التدافع مع هؤلاء الأعداء -ناهيا عن عنف الصراع- لأن هذا المنهاج هو السبيل لتأليف القلوب وإحداث التحولات في هذه القلوب ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون:٩٦)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٣-٣٤).

لقد كان ﷺ نموذجا للإنسان الكامل، العابد المتبتل، والفارس المقاتل، والرحيم الرفيق، والغاضب لحرمات الله وحدود الله، والباشّ المداعب والمفاكه لأهله وأصحابه بالمُلح والطرائف والنكات، وصولا إلى مفاتيح القلوب، وفقه النفوس والعقول، لتحقيق سعادة الإنسان في هذه الحياة وفيما وراء هذه الحياة.

ففي البشاشة والدعابة والمزاح والملح والطرائف -إذا استقامت وأعانت على تهذيب القلوب وتجديد الملكات وتأليف النفوس- رحمة يكتبها الرحمن في حسنات الرُّحماء. ■

(*) كاتب مفكر إسلامي / مصر.

المصادر

(١) إسلامية المعرفة.. ماذا تعني؟ للدكتور محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩م.

(٢) الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصري، دمشق ١٩٨٢م.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم، بيروت ١٩٨٣م.

(٤) المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد عمارة ، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣م.

(٥) معالم المنهج الإسلامي، للدكتور محمد عمارة، دار الرشاد، القاهرة ١٩٩٧م.

(٦) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٣م.

(٧) الإسلام والفنون الجميلة، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة ١٩٩١م.

(٨) الغناء والموسيقى حلال أم حرام، للدكتور محمد عمارة، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٩٩م.

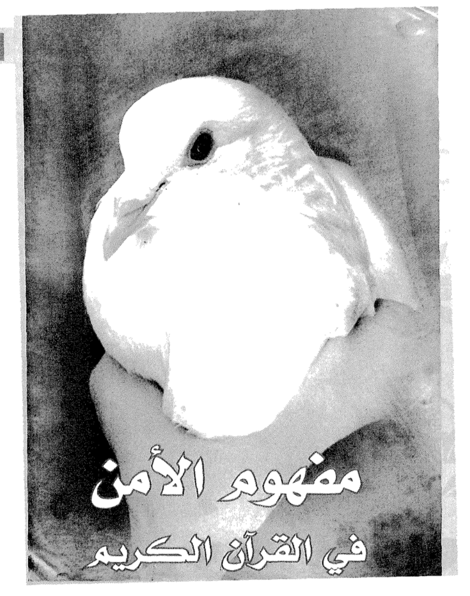
(٩) لسان العرب، لابن منظور، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م.

(١٠) أساس البلاغة، لمحمود الزمخشري.

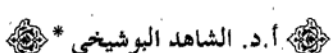
(١١) قاموس المنجد، للويس معلوف، بيروت ١٩٨٦م.

(١٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، طبعة مصورة، دار الشعب القاهرة. ولقد خرج العراقي ما أورده الغزالي من أحاديث في هذا الجانب -جانب الدعابة والملح والطرائف والنكات- من سنة وسيرة رسول الله ﷺ- وكتابه "المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار" مطبوع بهامش هذه الطبعة من الإحياء.

(١٣) الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، مصر، ١٩٩٩م.

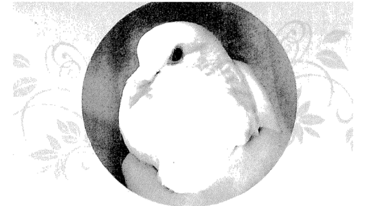


مفهوم الأمن في القرآن الكريم



أ.د. الشاهد البوشيخي *

المصطلح في كتاب الله ﷻ هي ألفاظ هذا الدين، عليها المدار، والقرآن نفسه بيّنها في مواطن كثيرة، ورسول الله ﷺ بيّنها أيضا في مواطن كثيرة، والراسخون في العلم عبر القرون اجتهدوا أيضا في بيانها في مواطن كثيرة، ولكن حال زماننا هذا بما هو عليه من قدر غير يسير من البعد عن كتاب الله ﷻ: بُعد لغوي وبعد إيماني وبعد مفهومي وبعد مصطلحي... هذا البعد يجعل الاهتمام وتركيز الاهتمام على هذه الألفاظ اليوم من أوجب الواجبات، وهذه الألفاظ لا نستطيع اليوم أن نقترب وأن نلج عالم القرآن وأن نغلغل في أعماقه إلا بعد الاقتراب منها ومحاولة التمكن من مضامينها ومن مفاهيمها، وهي لا تتأثر بالعصور، فهي ثابتة في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ، وإن هذا الكتاب يحمل معجمه ويحمي معجمه، فلو حاولنا ما حاولنا، وحاول المحاولون ما حاولوا أن يُحْدثوا التغيير في أي مفهوم لكتاب الله ﷻ، فلن يستطيعوا ذلك، وذلك من حفظ الله ﷻ لكتابه مما ينص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩).



ومن تلك الألفاظ المهمة جدا في كتاب الله ﷻ -والتي نحتاج إلى فهمهـا وتبيّن المراد منها لنعرف كيف نكسب مضمونها، ونتصف بمفهومها- لفظ "الأمن". وهذا اللفظ، حاجة البشرية إليه اليوم شديدة جدا، فالقلق مسيطر على البشرية اليوم في كل مجال، الاضطراب والحيرة وقلق البال واضطراب الحال، حال القلوب خاصة، هذا الأمر متمكن غاية التمكن من البشرية اليوم، وذلك شيء طبيعي، لأن الشيء الذي به يسكن القلب البشري ويطمئن ويرتاح، والذي به تسعد الروح البشرية في هذه الدنيا وفي الآخرة أيضا، ليس هو الذي له السيادة اليوم وليس هو الذي منه تقتات البشرية، وإليه ترجع، فالمرجعية اليوم لغير كتاب الله ﷻ، بينما هو الروح -روح البشرية حقيقة- كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢).

فالقرآن هو الروح الذي يجمع هذه القطع المتناثرة من أمة الإسلام ليجعل منها -بإذن الله تعالى- جسدا واحدا له كل مظاهر الحياة التي أشار إليها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح المشهور: "مثل المومنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم).

فبغير روح القرآن لا يكون هذا الجسد، ولن تجتمع هذه القطع في كيان واحد حي يرى ويسمع ويفقه، له أعين يبصر بها وله آذان يسمع بها وله قلوب يفقه بها. بغير هذا القرآن لن تكون حياة، ولن يكون اجتماع، لنحظى برؤية الأمة من جديد، أمة الإسلام، فما أكثر الحواجز كما نرى اليوم بين أطرافها جغرافيا وتاريخيا ومذهبيا وفكريا وسلوكيا وغير ذلك، ولكن إذا وقع الاجتهاد لإعادة روح القرآن وإحلالها في كيان الإنسان في كل مكان من أرض الإسلام، فإن هذه القطع وهذه الأجزاء ستجتمع بإذن الله ﷻ ليتخلق منها جسد واحد حي له كل خصائص الحياة. وليحدث هذا فنحن بحاجة إلى أن نتبين المداخل إلى هذا القرآن الكريم. ومن تلك المداخل: مفهوم الأمن في كتاب الله ﷻ، وسننظر إليه من زوايا متعددة:

الأمن لا يقبل التبعيض

مما يثير الانتباه في كتاب الله ﷻ أن هذا اللفظ (أي الأمن) لم يَرِدْ إلا في خمسة مواضع: ثلاثة منها ورد معرّفا في الصورة المطلقة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾(النساء:٨٣)، وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾(الأنعام:٨٠-٨٢)، ومرتين ورد منكرا، منها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(النور:٥٥). وورد على غير الصورة الاسمية أضعاف ذلك سواء بصيغة الماضي أو صيغة المضارع أو في صيغة المشتق كاسم الفاعل المفرد أو الجمع. وقد ورد اللفظ بعدة أشكال لكنه لم يرد مقيدا بشيء لا بوصف ولا بإضافة، ومعنى ذلك أنه غير قابل للتبعيض، فالأمن شيء كلي شامل لا يقبل التبعيض، فهذه نقطة مهمة وهو أن الأمن نعمة يتنعم بها الناس إما أن تكون وإما أن لا تكون، ولا يمكن أن تكون مبعضة، بمعنى ينعمون بنوع من الأمن ولا ينعمون بأنواع أخرى ولا سيما بالنسبة لأهل الإيمان، لأن المنطق الذي يحكم دائرة الإيمان بعد سيدنا محمد ﷺ هي دائرة التكليف ودائرة الشهادة على الناس، بينما الدائرة الأخرى ليست مكلفة، ولذلك إذا تمت الاستجابة للتكليف تكون النتائج وتكون الآثار الطيبة وتكون الثمرات وتكون الخيرات، وإذا لم تتم الاستجابة تكون العقوبات. بينما في دائرة غير الإيمان قد يتم التنعم الدنيوي حتى يرتحل الناس

ولا يكون إشكال لأنهم ليسوا مكلفين بهذه الأمانة.

والأمر عندنا جميعا واضح فلا نبي بعد محمد ﷺ، وأمتُه من بعده هي حاملة للأمانة، ولذلك إذا لم تقم بها تحاسَب على ذلك أفرادا وأمة، تحاسب على ذلك حسابا عسيرا في الدنيا وفي الآخرة، والفسادُ الذي يحدث في غير المسلمين هو في الحقيقة بسبب تقصير المسلمين، لأن شرطة الأرض المنظمة للسير في الكرة الأرضية هي الأمة الإسلامية، هذا موقعها لا واقعها، ولكنها للأسف لم ترتق الآن إلى الموقع وهي الآن في واقع نعرفه جميعا، فلذلك إن مفهوم الأمن بالنسبة لهذه الأمة لا يتبعض لأن مقره القلب كما سنرى في النظرة الموالية.

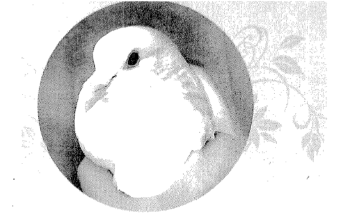
الأمن سكينة القلب

إنْ تتبعنا لمفهوم الأمن يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنه مستقر في القلب، ومدار مادة "أمن" في اللسان العربي على سكينة يطمئن إليها القلب بعد اضطراب، وأنقل هاهنا قول الراغب الأصفهاني فإنه يكاد يكون جامعا لما في غيره مع تدقيق، يقول رحمه الله: "أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف... و"آمن" إنما يقال على وجهين: أحدهما متعدّيا بنفسه، يقال: آمنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن؛ والثاني: غير متعدّ، ومعناه صار ذا أمن... والإيمان هو التصديق الذي معه أمن". كأن الإمام الراغب رحمه الله لا يتصور أن يكون هناك مؤمن وليس عنده أمن، أي سكينة واطمئنان، أي استقرار لا اهتزاز ولا اضطراب ولا قلق ولا حيرة، لأنه مطمئن إلى ربه ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد:٢٨). ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾(الفتح:٤). فالمدار إذن على وجود سكينة في القلب في جميع ما دارت فيه المادة سواء في صورة "أمن" أو "آمن" المتعدي واللازم، المدارُ على هذه السكينة وعلى هذه الطمأنينة التي تأتي في حقيقتها بعد نوع من القلق والاضطراب، وتأتي بعد قدر من الخوف، وهذا الخوف عبر عنه بالخوف نفسه، وعبر عنه بالبأس، وعبر عنه بالفزع ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾(النمل:٨٩)، وعبر عنه بألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ، ولكن مؤداها جميعا هي أنها تُحدث لدى الإنسان ضربا من الخوف، فإذا جاء الأمن أزال ذلك الخوف، هذا الأصل وهذا المدار الذي تدور عليه المادة يجعلنا نتجه إلى أن المعنى الذي للأمن هو أنه حال قلبية تجعل المتصف بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد وتحصل له السعادة الأبدية.

هذه الحال هي نعمة من الله ﷻ، وإذا ربطنا الكلام ببعضه، فإننا نجد من أسماء الله الحسنى "المؤمن"، وقد فهم الراغب الأصفهاني -كما مر في نصه السابق- أن معنى اسم الله المؤمن: الذي يمنح الأمن ويعطيه، فهذه الحال -التي هي نعمة من الله ﷻ- هو الذي يعطيها: ﴿لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾(قريش:١-٤)، ومعنى ﴿آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ أي أعطاهم الأمن، وللمكان طبيعته الخاصة، وسره الخاص، وقد وصف القرآن الكريم ذلك المكان في مواطن متعددة بأنه "آمن" ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾(البقرة:١٢٦)، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾(إبراهيم:٣٥)، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾(العنكبوت:٦٧). ذلك سر جعله الله في ذلك المكان تفضلا منه ﷻ، وإنا لنرى ذلك حتى الساعة، إذ كيف نفسر -على سبيل المثال- انداياح موجة الاستعمار الغربي على جميع ديار الإسلام -تقريبا- ولكن لم يحدث هذا الأمر بالنسبة للبلد الحرام، لا لأن تلك المنطقة كانت قوية، فعسر على الاستعمار أن يحتلها، ولكن هناك سر الله ﷻ في هذا الأمر، جعله آمنا ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(آل عمران:٩٧)، هذا شيء نراه عبر التاريخ، وهذه الملحوظة بالتحديد تلفت النظر بقوة، فالجزيرة تنقصت من أطرافها واحتلت شوائطها الشرقية وجنوبها وغربها وشمالها وبقي وسطها. والأمر كذلك بالنسبة للفُرس والروم زمن رسول الله ﷺ وقبله، فالمكان له وضعيته وله حال خاصة هبة من الله تعالى لا تزال مستمرة، لكن بالنسبة للإنسان حصول تلك الحال مرتبط بأسباب وشروط. وهنا نقف في النظرة الثالثة على أسباب وجود الأمن وشروط استمراره.

الأمن ثمرة من ثمرات الإيمان

السبب الأول لوجود الأمن في هذه الأمة -وهو شرط في نفس الوقت- هو الإيمان. والأمر في غاية الوضوح، هناك علاقة بين الإيمان والأمانة والأمن، وهذه الألفاظ الثلاثة تنتمي لنفس المادة. والأصل الذي يتفرع منه كل شيء هو الإيمان، والإيمان يعطي الأمانة ويعطي أداء الأمانة و"لا إيمان لمن لا أمانة له" (رواه الإمام احمد)، والله أمر بأداء الأمانات وحرم خيانة الأمانات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ



تَعْلَمُونَ﴾(الأنفال:٢٧)، وكل المسؤوليات أمانات، فما نسميه اليوم بالمسؤولية هو أمانة.

وهناك الأمانة العظمى التي أشارت إليه الآية الكريمة بالنسبة لآدم وبنيه (أي للإنسان) في الآية المشهورة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢). هذه أمانة الاستخلاف العامة، فالأمانة العامة هكذا على إطلاقها هي أمانة الاستخلاف في الأرض، فبنو آدم غيرُهم مسخر لهم، وكل ما سواهم يخدمهم، وهم عليهم أن يخدموا الله ﷻ وأن يعبدوا الله ﷻ. هذه الأمانة (أمانة الاستخلاف) تليها أمانة أخرى أعظم منها وهي أمانة "الشهادة على الناس" بالنسبة لهذه الأمة خاصة؛ لأن الأمم السابقة ما حمّلت تبليغ الدين فرضا، نعم، كان نفلا وكان مطلوبا من المسلمين قبل مجيء الرسول الخاتم، لأن جميع من مضى من المؤمنين كانوا مسلمين أنبياء وغير أنبياء، لكن لم يكونوا مكلفين فرضا بالتبليغ إلا في هذه الأمة فقد انتهى إرسال الرسل وانتهت النبوات، وصارت الأمة كلها مكلفة بما كان مكلفا به رسول الله ﷺ. ولذلك جعلها الله في مستوى معين ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣)، هذه الأمانة إلى جانب الأمانة الأخرى، كلها إنما تؤدى على حقيقتها بالإيمان، إذا وجد الإيمان أُدّيت، وإذا لم يوجد لا تؤدى هذه الأمانات، وهذه الأمانة على عمومها تحتها أمانات: فالصلاة أمانة والزكاة أمانة وتربية الأولاد أمانة... وكل تكليف من تكاليف الشرع أمانة من الأمانات، والله يأمر بأداء الأمانات بصفة عامة، وكلها مسؤوليات -بتعبير اليوم- يجب أن تؤدى، وإنما تؤدى على وجهها الصحيح بسبب الإيمان، فالهدف من الإيمان أن تؤدى الأمانات على أحسن وجه، وفي الحديث "لا إيمان لمن لا أمانة له" (رواه الإمام أحمد).

وعندما يوجد الإيمان وتؤدى الأمانة يأتي الأمر الثالث بصورة طبيعية وهو حال: يجد المؤمنون أنفسهم فيها، قلبا وقالبا: قلبا من حيث ما يشعرون به هم من طمأنينة وسكينة وراحة بال، ويشعرون بالراحة الكاملة نتيجة الإيمان وأداء الأمانة أو بالتعبير الآخر: الإيمان والعمل الصالح، ومن حيث القالب يجدون ما يسمى بـ"السلم" -وهو نوع من الأمن-؛ فالأمن محله القلب أساسا، والصورة التي ينتجها ما في القلب في الخارج هي "السلام". فالأمن إذن نتيجة وليس فعلا يمكن أن نفعله، وإنما هو نتيجة طيبة ونعمة من الله ﷻ يتفضل بها علينا إذا آمنا وهو الشرط الأول، وإذا عملنا الصالحات وهو الشرط الثاني، وذلك ما نص عليه الوعد السابق ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(النور:٥٥). فيأتي الأمن نتيجة ما سبق، ويأتي نتيجة أسباب معينة، ويأتي نتيجة حصول شروط معينة على رأسها الإيمان الصحيح والعمل الصالح، فإذا وجد هذا بالنسبة للفرد وبالنسبة للجماعة جاءت هذه النتيجة وإلا اختفت.

ولا بأس من الإشارة في هذا المقام إلى سبب آخر من أسباب الاستمرار تشير إليه الآية الأخرى في سورة النحل، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل:١١٢)، حين اختفى الإيمان واختفى العمل الصالح واختفى الشكر وحل محله شيء آخر سماه القرآن ﴿كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾، وهذا الأمر سنفصل فيه الحديث بعد قليل عندما نتحدث عن موانع حصول الأمن، لكن هاهنا الإشارة إلى أن كفران النعمة يسلب نعمة الأمن، فالله ﷻ يعطي الأمن لكن عندما لا يقع الشكر على هذه النعمة فإنها تنقطع.

فالأمن يأتي بشروط محددة تفضلا من الله على كل حال، ويأتي بالإيمان وبالعمل الصالح، لكن هل يستمر أو لا يستمر؟ والجواب عن ذلك هو أن الأمن يستمر بشكر النعمة وينقطع بكفران النعمة، وهنا نأتي إلى النظرة الأخرى التي هي في موانع الأمن فما الذي يمنع الأمن أن يكون بالقلوب وفي الحالة العامة للأمة.

موانع الأمن

في الحقيقة من خلال آية سبأ يمكن أن نتلمس ثلاثة موانع هي تفصيل لكفران النعمة، ولا شك أن النعمة العظمى هي نعمة

الأمن فيقع كفرانها، وعندما نأتي إلى آية سورة الحجرات، عندما يقول ﷻ: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾(الحجرات:٧). فهذه الأنواع الثلاثة كلها كفران لأنعم الله على رتب متفاوتة: الرتبة الأولى: والخطيرة: هي رتبة الكفر الصراح، وتأتي بعدها رتبة ثانية خطيرة أيضا ولكنها دون الأولى، وهي الخرق المستمر للطاعة ورفض الامتثال مطلقا ليس إنكارا لله ﷻ، فهناك إيمان واعتراف بوجود الله، ولكن صاحب هذا النوع يرفض طاعته نهائيا. ولو تأملنا حال كفر إبليس وإلى أي نوع من أنواع الكفر ينتمي، يتبين أنه من هذا النوع، قال ﷻ: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(الكهف:٥٠) أي رفض أن يطيع. لكن معصية آدم عليه السلام قبل أن يتوب الله عليه كانت من نوع آخر قال ﷻ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾(طه:١٢١-١٢٢)، فمعصيته نتيجة خطأ ونتيجة زلل، وكانت معصية عارضة فقط، وليس معها إصرار على رفض الطاعة مطلقا، بينما معصية إبليس معها رفض لأصل الطاعة مطلقا، فهي فسق والفسوق درجة عليا في المعصية، ولم يكن إبليس ينكر وجود الله ﷻ؛ بل بالعكس كان دائما يعتبره ربه ويدعوه ويرجوه أن ينظره إلى يوم البعث، ولكنه رفض مبدأ الطاعة، وطعن في نفس الأمر وأنه ليست فيه حكمة ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(ص:٧٦)، فإذن كيف يسجد له! هذا ليس بمنطق! وهذا ليس عدلا! ولا ينبغي أن يكون الأمر هكذا! هذا تصرف إبليسي متى حدث، لأنه يطعن في أسماء الله ﷻ وصفاته: في حكمته وعدله. هذا هو الفسوق، وهو أيضا نوع خطير من كفران النعم كما بينت، ويأتي بعده العصيان وهو يكون ممن يطيع أحيانا ويعصي أحيانا، مع هذا إذا كانت المعصية موجودة فإنها كذلك تمنع -بقدر وجودها- حصولَ الأمن عند العاصي سواء كان فردا أو جماعة أو أمة، ويصير مانعا من حصول حال الأمن، وهذه النقطة في غاية الأهمية لأنها تشير تلقائيا إلى كيف نكتسب الأمن، وكيف نقي أنفسنا من خطر انعدام الأمن.

معيات الأمن

إنه حين يوجد الأمن توجد أشياء أخرى معه، وترافقه خيرات وبركات، نجد آيات تتحدث عن هذا المعنى منها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾(النحل:١١٢)، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(القصص:٥٧). فمع وجود الأمن في قلوب الأفراد وفي المجتمع، تأتي خيرات ويقع ازدهار اقتصادي وتقع حركة نشيطة في التجارة. واليوم نرى -على سبيل المثال- أن الأماكن والمناطق التي يضطرب فيها الأمن يفر المقاولون الكبار بأموالهم منها، ولا يستثمرون فيها، بينما إذا حدث العكس فإنهم يطمئنون على أموالهم ويتحركون بأمان. فهذا الازدهار الاقتصادي والراحة النفسية التي تكون للناس، تجعلهم يمارسون حياتهم في اطمئنان كامل، آمنين على أموالهم وعلى أعراضهم وعلى أنفسهم ويقع السلم الاجتماعي العام.

إذن، هذه النعمة التي اسمها "الأمن" هي نعمة مشروط وجودها بوجود الإيمان وبوجود العمل الصالح، وترتفع تلقائيا إذا وجد العكس، إنه لا يتبعض، وهو في القلب. وحينما نقول: "في القلب" فهو تلقائيا يمتد إلى باقي الجوارح وإلى جميع الجسد على القاعدة المشهورة التي أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (متفق عليه).

وما حدث في زماننا هذا، من الحديث عن أنواع كثيرة من الأمن، جعله كتاب الله ﷻ حالة واحدة إما أن تكون، وإما أن يكون عكسها وهو الخوف والفزع والقلق والاضطراب والحيرة والبأس... وغيرها مما ذكر الله تعالى في كتابه. فيمكن إذن أن نخلص إلى أمر عام هام هو أن هذه النعمة العظيمة التي هي الأمن، إذا أردنا أن ننعم بها حقيقة فإن علينا أن نتوب توبة نصوحا أفرادا وجماعات في مختلف أقطار الأمة، أن نعود إلى القرآن ونتوب إلى الله ﷻ، ونشتغل بما كان يشتغل به رسول الله ﷺ، أي نمارس حياتنا في إطار شرع الله ﷻ... إذا كان ذلك كذلك جاءت العزة بالاستخلاف في الأرض، وجاء ما يعقبها من التمكين في الأرض، وجاءت النعمة الكبيرة الأخيرة الثالثة وهو تبديل الخوف القائم الآن في جميع أنحاء الأمة الإسلامية، تبديل ذلك أمنا.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يكرمنا بهذه النعمة، ويكرمنا بأسباب وجودها، ويكرمنا بسبب استمرارها. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

واحة القراء

مجلة حراء تعني صلة الأرض بالسماء، نعني أنكم أحسنتم اختيار هذه الكلمة الجامعة، وأنكم عضدتم لغة القرآن الكريم، واخترتموها لغة للتخاطب، ونشر هذه المجلة في عالمنا العربي والإسلامي، ونحمد الله أننا حظينا بهذا المناخ من حيث أنه مدخل خير لعالمنا العربي والإسلامي الذي يبشر بمستقبل زاهر للإسلام.

د. أحمد علي الإمام
مستشار رئيس الجمهورية السودانية لشؤون التأصيل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
أبصرت عيناي "حراء" إذ كنت في رحلة بين ربوع أراضي منشأها تركيا.. وكان العدد الأول، ومن ثم التاسع، ولسوءٍ في حظي لم أُدرك ما بينهما!.. لكني أدركتُ أن النور يُشع من "حراء"!.. تجذبني إلى نورها تلك الأقلام النيرة ذات الفكر الإسلامي العميق، والأسلوب الراقي حد الذهول!.. لله دُر أرواحكم!.. إذ تبعث الأمل فينا جليا بين حنايا الفؤاد!.. جزاكم الباري الفردوس الأعلى وأعالي الجنان.

شيماء القره داغي / قطر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
لقد أصبحت أسيراً في قبضة جمال "حراء"، ومتيما في بهاء "حراء". لقد أضفيتم إلى الجمال جمالا وإلى البهاء بهاء، حتى أضحت "حراء" وأهلها أغنيتنا المفضلة وأملنا الكبير.. وفقكم الله وأعانكم..

د. عبد الله محمد الحياري / اليمن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
حراء... حوّلت صحراء نفوسنا إلى حدائق ذات بهجة وسرور.. فقد مزجت بين العلم والدين والتاريخ والحضارة والشعر والأدب والفكر والحياة... أشكر جميع قراء ومشتركي المجلة وأسأله سبحانه النجاح والتوفيق في الأعمال. نحن بانتظار الأعداد الجديدة بكل سرور..

أبو أسامة / العراق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
لست أدري كيف أبداً، لكني أصبحت من المعجبين بمجلة حراء التي تضم كل العلوم وتعبر عن حضارة أمة كانت، هي السباقة في ازدهار وتطوير كل العلوم. فالمجلة تجعل القارئ يفكر ملياً في مبدع الكون وفي المانح للإنسان أهم شيء في الوجود وهو العقل والروح الذي يتفرد بها الإنسان عدا سائر المخلوقات.. وشكراً.

د. أمة الغفور الأمير / اليمن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..
بالفعل إنجاز حضاري عصري رائع، مليء بالكثير من تلك المعلومات الأدبية والإبداعية الجميلة التي تستحق كل الشكر والتقدير. وتفضلوا بقبول أسمى أيات العرفان وشكرا..

د. هاشم إبراهيم / السعودية







تتبع آثاره ﷺ

امضِ خلف بصمات قدميه الشريفتين،
وإلا تهتَ في قِفار الحياة،
وابتلعتك صحارى الهلاك،
منفرداً لا تمش،
وعن آثار دليلك لا تنكص،
فسرْ حيث سار،
واجعل طريقه
لك طريقا..

* * *



تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار


ISSN 1306-1879
9 771306 187009 13
www.hiramagazine.com